بسم الله الرحمن الرحيم

سورة الأحزاب

سورة الأحزاب سورة مدنية، تتحدث عن بعض أمور الأسرة المسلمة، وعن المنافقين وأذاهم للنبي ﷺ، وعن غزوة الأحزاب، إلىٰ غير ذلك، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ نداء إلىٰ الحبيب ﷺ، معناه: يا أيها المؤتمن علىٰ أسرارنا، المبلغ عنا خطابنا إلىٰ أحبابنا، إليك هذه التكليفات:

أولًا: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ **أي**: دم علىٰ تقوىٰ الله، وازدد منه، **والتقوىٰ**: أن تعمل بطاعة الله، علىٰ نور من شرع الله، رجاءً في ثواب الله، وأن تترك معصية الله، علىٰ نور من شرع الله، مخافة من عذاب الله.

ثانيًا: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ فيما يخالف شريعة الله، فلا تسمع منهم، ولا تستشرهم.

حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا﴾ بعواقب الأمور ﴿حَكِيمًا﴾ فيما أمرك به ونهاك عنه، لذلك هو أحق أن تتبع تعاليمه.

ثالثًا: ﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من قرآن وسنة، حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ لا تخفىٰ عليه خافية.

obeikandl.com

رابعًا: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ في جميع أمورك وأحوالك، وهو كافيك في كل ذلك ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

ويلاحظ جيدًا: أن الخطاب في هذه التكليفات للنبي ﷺ، ولكن تدخل أمته معه فيها، فهي مطالبة أيضًا بهذه الأمور:

تقوىٰ الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين، واتباع الوحي، والتوكل علىٰ الله.

وبعد هذه المقدمة التشريعية للنبي ﷺ التعليمية له ولأمته، تدخل الآيات في إبطال عادة جاهلية، وهي عادة التبني، فتقول تمهيدًا لذلك:

﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴿٤﴾﴾

يعني ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ﴾ يَعِي بهما، كما كان يدعي بعض الكفار، عنادًا للنبي ﷺ، ولذلك هو قلب للإنسان واحد، ومنهج يسير عليه الإنسان واحد، وهو منهج الله تعالىٰ.

﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ﴾ حينما يقول المرء لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، أي: لا تصير الزوجة أمًّا بذلك.

﴿و﴾ ثالثًا ﴿مَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ الذين تدَّعون بنوتهم، وتتبنونهم: ﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ الذي تدعونه في حق هؤلاء الثلاثة: هو ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ﴾ فقط، وليس له علاقة بالحقيقة.

﴿وَٱللَّهُ﴾ وحده هو الذي ﴿يَقُولُ ٱلْحَقَّ﴾ في ذلك.

﴿وَهُوَ﴾ أيضًا الذي ﴿يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ﴾ الحق، والطريق الحق، والقول الحق.

لذلك وبخصوص أولاد التبني:

﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

وهنا: إبطال مباشر لعادة التبنِّي وتشريع واضح للبديل.. ﴿ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ﴾ إن كان آباؤهم معروفين، ذلك ﴿هُوَ أَقْسَطُ﴾ أعدل وأفضل ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ وفي شرعه ودينه.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ﴾ لتنسبوهم إليهم: ﴿فَـ﴾ هم ﴿إِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ﴾ وهذه أخوة جديدة بدأ الإسلام يرسخها في النفوس، ويعلي من شأنها بين المسلمين.

﴿و﴾ كذلك هم ﴿مَوَٰلِيكُمْ﴾ بينكم وبينهم ولاية في الدين،وترابط وتناصر وذلك: عوضًا لهم عما فاتهم من النسب الحقيقي.

هذا، ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ أي: ذنب وإثم ﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ﴾ في هذا الموضوع، وهو موضوع (التبني)، قبل هذا التشريع، ولكن الإثم والذنب في ﴿مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ﴾ فعله، وفعلتموه بعد هذا النهي عنه.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لمَا سبق منكم في هذا الموضوع ﴿رَّحِيمًا﴾ حيث يقبل التوبة، حتىٰ ممن كان متعمدًا.

وبعد ترسيخ هذا الحكم الجديد في هذا المجتمع الوليد، يشرع ربنا أحكامًا أخرىٰ فيقول سبحانه وتعالىٰ:

﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ﴿٦﴾﴾

﴿ٱلنَّبِىُّ﴾ ﷺ ﴿أَوْلَىٰ﴾ طاعة ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ﴾ طاعتهم لـ ﴿أَنفُسِهِمْ﴾ حيث إن نفوسهم تدعوهم إلىٰ الهلاك، وهو يدعوهم إلىٰ النجاة، **وهذا هو الحكم الأول.**

والحكم الثاني: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ **أي:** كأمهاتهم، في وجوب احترامهن وتعظيمهن، وحرمة نكاحهن.

الحكم الثالث: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ﴾ في قضية الميراث، فيكون الميراث بينهم بالقرابات، وذلك ﴿فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ أي: في حكمه وقضائه، ﴿مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ حيث كان التوارث بالولاية في الدين والهجرة، لا بالنسب والقرابة.

ويستثنىٰ من هذا الحكم: التواصل، والإحسان، والبر، والمعروف بين هؤلاء الأولياء ﴿إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا﴾ فهذا باق إلىٰ يوم القيامة.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ﴾ أي: التوارث بالأرحام والقرابات، والإحسان والتواصل، مع أولو الأرحام ﴿فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهو اللوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾ مكتوبًا.

بعد هذه التكليفات للنبي ﷺ، وأمته، وبعد تصحيح هذه المفاهيم والعادات المغلوطة، التي كانت، نعم بعد التأكيد علىٰ القيام وتبلُّغ هذا وذاك.

يقوي ربنا عزيمة حبيبه ﷺ، بتذكيره بإخوانه المرسلين من أولي العزم، فيقول الله عز وجل:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ﴿٧﴾ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾

أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ﴾ وقت أن ﴿أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ جميعًا ﴿مِّيثَٰقَهُمْ﴾ في إقامة دين الله، واتباع شرعه، وتبليغ أحكامه وهديه.

﴿و﴾ اذكر أيضًا وقت أن أخذنا ﴿مِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ علىٰ وجه الخصوص؛ لأنكم من أولي العزم، وجميل الصبر علىٰ تحمل إيذاء الدعوة.

﴿و﴾ قد ﴿أَخَذْنَا مِنْهُم﴾ أي: من الجميع ﴿مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ أي: عهدًا شديدًا

مؤكدًا، وكان ذلك ﴿لِّيَسْـَٔلَ﴾ الله ﴿ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾ المؤمنين ﴿عَن صِدْقِهِمْ﴾، وهم الأنبياء، في تبليغ رسالتهم؛ تبكيتًا للكافرين، وخزيًا لهم ﴿و﴾ قد ﴿أَعَدَّ﴾ الله ﴿لِلْكَـٰفِرِينَ﴾ هؤلاء ﴿عَذَابًا أَلِيمًا﴾ جزاء تكذيبهم وعنادهم.

عندما أمر الله رسوله والمؤمنين معه في أول السورة بتقوىٰ الله، وعدم طاعة الكافرين والمنافقين خوفًا منهم، واتباع شرع الله، والتوكل عليه، وذلك من باب التربية علىٰ الخوف من الله وحده، وعدم الخوف من غيره سبحانه أيًّا مَّن كان هذا الغير..!!

بيّن ذلك عمليًا بما حدث في غزوة الأحزاب، حيث يقول تبارك وتعالىٰ:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾﴾

هذه هي قصة غزوة الأحزاب في كلمات معدودات، يبين فيها رب العزة أنه هو الذي صرف الأذىٰ، وأبعد الخوف عن عباده المؤمنين ونصرهم؛ لمَّا حققوا تقواهم لله، واتباعهم لشرعه، وتوكلهم عليه، وعدم طاعتهم للكافرين والمنافقين.

وتفصيلات هذه الغزوة: من باب الدراسة لأخذ العبرة، والتربية الجهادية، في الآيات التالية: يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ:

﴿إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾﴾

هذا تصوير خارجي وداخلي للموقف في هذه الغزوة.

الخارجي: ﴿إِذْ جَآءُوكُم﴾ **أي**: الأعداء ﴿مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من شمال المدينة المنورة، وهم قريش وغطفان.

﴿وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ من جنوب المدينة، وهم يهود بنو قريظة، الذين نقضوا العهد معكم في هذه اللحظات، فأصبحتم بذلك محاطين بالأعداء من كل جانب.

والداخلي: ﴿وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ منكم ﴿وَبَلَغَتِ﴾ منكم كذلك ﴿ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ﴾ من شدة الخوف والفزع.

﴿و﴾ أصبحتم في هذا الموقف: ﴿تَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠﴾ حيث فهم المسلمون أن هذا هو الابتلاء، فخاف بعضهم الزلل، وضعف الاحتمال في مواجهة هذا العدوان، وعدم القدرة علىٰ نصرة الدين.

﴿هُنَالِكَ﴾ حقيقة ﴿ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وامتحنوا؛ ليظهر صبرهم ﴿وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ ليظهر ثباتهم علىٰ عقيدتهم.

والأدهىٰ من ذلك موقف المنافقين الذين كانوا في الجبهة الداخلية، يقول عنهم العزيز الحكيم:

﴿وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾﴾

أي: ﴿و﴾ اذكر ﴿إِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ نفاقًا كاملًا ﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: بعض نفاق، يقولون لبعضهم البعض: ﴿مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ﴾ من النصر والفوز علىٰ الأعداء، والنعيم المقيم إن صرنا شهداء ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ أي: تغريرًا بنا، وتزييفًا علينا.

بل أكثر من هذا الكلام: في التثبيط عن الجهاد..

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾﴾

يعني حوَّل المنافقون أحاديثهم إلىٰ عمل ﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ لكل الجيش ﴿يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ﴾ وهي المدينة؛ تخويفًا، وتشكيكًا في النصر ﴿لَا مُقَامَ لَكُمْ﴾ أمام هذا الجيش الجرار من المشركين، الذين أتوكم ليفنوكم ويستأصلوا وجودكم، ونحن ناصحون لكم ﴿فَٱرْجِعُوا۟﴾ إلىٰ المدينة، ولا تحاربوا.

إنها: دعوة خطيرة، وفتنة منكرة!! يَثْبُت فيها المؤمنون، ولا يتشككون، ولا يتراجعون وينخذل فيها المنافقون، فيتسرب بعضهم خفية إلىٰ المدينة، منسحبًا من ساحة الشرف والجهاد.

﴿وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ﴾ أي: من المنافقين ﴿ٱلنَّبِىَّ﴾ في الانصراف و﴿يَقُولُونَ﴾ معللين انصرافهم ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ أي: مكشوفة للأعداء.

﴿و﴾ الحقيقة أنهم كذبوا؛ إذْ ﴿مَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ كما يزعمون ﴿إِن﴾ أي: ما ﴿يُرِيدُونَ﴾ بهذا التعلل ﴿إِلَّا فِرَارًا﴾ من القتال، وما دفعهم إلىٰ ذلك إلَّا عدم الإيمان بالله ورسوله. لذلك يقول الله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ﴾ المدينة بالأعداء ﴿عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا﴾ من جوانبها فقط، وليس من قلبها ﴿ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ﴾ وهي الكفر، أي: طلب منهم الردة عن الإيمان الظاهري الذي هم عليه، والعودة إلىٰ الكفر ﴿لَآتَوْهَا﴾ وكفروا ﴿وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا﴾ وما تأخروا عن إجابتهم لهذه الفتنة ﴿إِلَّا يَسِيرًا﴾.

والغريب أن هؤلاء كان منهم عهد قبل ذلك، نعم..

﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٥﴾﴾

يعني ﴿وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ﴾ ورسوله ﴿مِن قَبْلُ ۚ﴾ أي: من قبل هذه الغزوة.. أنهم ﴿لَا يُوَلُّونَ الْأَدْبَارَ ۚ﴾ أي: لا يفرون من المعركة وملاقاة الأعداء؛ دفاعًا عن المدينة، بل يثبتون علىٰ القتال، ويموتون شهداء، ولكنهم الآن فروا، ونقضوا عهدهم.

﴿وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا﴾ مطلوبًا للوفاء به، ومحاسبًا عليه يوم القيامة.

ولمَّا كان فرارهم من ساحة القتال حرصًا منهم علىٰ حياتهم، فقد قال ربنا لحبيبه:

﴿قُل لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾﴾

يعني ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّن يَنفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ﴾ حيث إنه لا يؤخر آجالكم، ولا يطوِّل أعماركم، وحتىٰ لو فررتم منه في ساحة الجهاد،

كما تظنون وتحبون ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ﴾ بعد هذا الفرار في لذات الدنيا الفانية ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ ثم تموتون بعدها.

﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا: إن فررتم من الموت أو القتل ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم﴾ ويمنعكم ﴿مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا﴾ في أنفسكم بالقتل، أو بالمصائب، وغيرها ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ منه، كعافية وسلامة في بقية عمركم بعد الفرار.

علىٰ كل حال هؤلاء الذين يفرون سيعذبون ﴿وَلَا يَجِدُونَ لَهُم﴾ ساعتها ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا﴾ يغيثهم ﴿وَلَا نَصِيرًا﴾ يمنع عنهم هذا العذاب.

ثم بَيَّن الله ملامح وعلامات هؤلاء المنافقين، وذلك في قوله سبحانه:

﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾﴾

المعنىٰ: الله عز وجل يعلم المعوقين عن الجهاد منكم، أي: من بين صفوفكم سواء أكان هذا التعويق تثبيط بالقول أم بالفعل.

فهم يثبطون عن الجهاد بالقول؛ حيث يقولون ﴿لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ﴾ تعالوا معنا، واتركوا الساحة، ولا تقاتلوا مع محمد، وهم يثبطون عن الجهاد بالفعل كذلك، حيث إنهم ﴿لَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ﴾ أي: ساحة الجهاد، وأرض المعركة ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ من باب الرياء، ويتعللون لغيابهم بانشغالهم بمصالحهم الخاصة. **إنهم بخلاء..**

﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾﴾

نعم ﴿أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ﴾ بالمال، فلا ينفقون في سبيل الله، وبالبدن، فلا يقاتلون معكم، وبالعواطف، فلا يشفقون عليكم ولا يتوددون إليكم، وسبب ذلك أنهم جبناء.

﴿فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ﴾ من العدو: ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ في هذه الحالة ﴿تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ يمينًا وشمالًا، وهم في منتهىٰ الهلع ﴿كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ﴾ الفزع، عند

حلول ﴿ٱلْمَوْتِ﴾ به. وهكذا خوف الجبان البخيل من القتال.

﴿فَإِذَا﴾ ابتعد العدو، أو انهزم و﴿ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ﴾ عنهم: ﴿سَلَقُوكُم﴾ طالت ألسنتهم، وعلت أصواتهم، وآذوكم بالكلام الشديد المؤلم كالحديد، وهم يبحثون عن الغنائم والمكاسب، وهم بكلامهم هذا، وحرصهم هذا، تَرَوْنهم ﴿أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ﴾ يطالبون بلا خجل، ويزاحمون بلا مروءة، يقولون أين نصيبنا، لقد قاتلنا معكم؟

فهم في الحرب: أجبن شيء!!. **وهم في السلم**: أطمع شيء!!.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الذين يفعلون ذلك: ﴿لَمْ يُؤْمِنُواْ﴾ في الحقيقة، إلَّا باللسان فقط.

ولهذا، ﴿أَحْبَطَ ٱللَّهُ﴾ وأبطل ثواب أَعْمَالِهم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط لأعمالهم: عدلًا من الله تعالىٰ، كما أنه كان ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾ هيِّناً.

هؤلاء من شدة جبنهم أنهم كانوا..

﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ وَإِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّواْ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِي ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾﴾

يعني أن هؤلاء المنافقين ﴿يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ﴾ التي جاءت لحرب المسلمين ﴿لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ حتىٰ بعد انصرافهم.

﴿و﴾ كانوا ﴿إِن يَأْتِ ٱلْأَحْزَابُ﴾ مرة ثانية ﴿يَوَدُّواْ﴾ أي: المنافقون ﴿لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ﴾ أي: مقيمون بالبادية ﴿فِي﴾ وسط ﴿ٱلْأَعْرَابِ﴾ تجنبًا للقتال، و﴿يَسْـَٔلُونَ﴾ كل قادم من المدينة ﴿عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ﴾.

﴿وَلَوْ﴾ أنهم ﴿كَانُواْ فِيكُم﴾ ساعة القتال والحرب: ﴿مَّا قَٰتَلُوٓاْ إِلَّا﴾ قتالًا ﴿قَلِيلًا﴾ لجبنهم، وضعف إيمانهم.

هؤلاء هم المنافقون، فاعرفوهم واحذروهم واتبعوا رسول الله، ولا تتخلوا عنه أبدًا.

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾

أي: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي﴾ أقوال وأفعال وأحوال ﴿رَسُولِ ٱللَّهِ﴾ ﷺ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ قدوة طيبة تحتذونها، وتسيرون عليها يا أيها المتخلفون عن الجهاد، والقتال معه في سبيل الله..!! أليس هو الذي بذل نفسه، لنصرة دين الله؛ حينما خرج إلىٰ الخندق، وجاع بطنه، وصبر وصابر في سبيل الله؟

أليس هو الذي بذل نفسه لنصرة دين الله؛ حينما خرج إلىٰ أحد، وشُج وجهه، وكُسرت رباعيته، وقُتل عمه، وصبر وصابر في سبيل الله..؟

نعم إنه ﷺ ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ ومثل أعلىٰ لكل الباحثين عن الشرف والمجد، وهو ﴿أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ يَقتدي به، كلُّ موصوف بهذه الصفات:

أولًا: الذي ﴿يَرْجُواْ ٱللَّهَ﴾ أي: يطلب مرضاة خالقه سبحانه، ويتبع شرعه.

ثانيًا: الذي يخاف ﴿ٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ﴾ ويَسْتَعِدُّ له بالعمل الصالح.

ثالثًا: الذي ﴿ذَكَرَ ٱللَّهَ﴾ في حال الرجاء والخوف، بل في كل أحواله ذكراً ﴿كَثِيرًا﴾.

وبعد أن بين الله أحوال المنافقين، وعاتب المتخلفين، وقدم الأسوة الحسنة للراغبين في مرضاة الله.. بيّن حال المؤمنين الصادقين في هذه الغزوة، فقال تعالىٰ:

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾﴾

أي: ﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ وهم مصطفون للقتال ﴿ٱلْأَحْزَابَ﴾ قدموا لقتالهم لم يخافوا، ولم يتخاذلوا، بل ﴿قَالُواْ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ من الابتلاء والاختبار، ثم النصر علىٰ الأعداء بإذن الله ﴿وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ﴾ في هذا الوعد.

﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ تجمع الأحزاب وكثرتهم، وإحاطتهم بالمسلمين من كل جانب ﴿إِلَّآ إِيمَٰنًا﴾ بالله ورسوله، وبوعد الله ورسوله ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضاء الله وقدره.

ولمَّا كان الله عز وجل قد أخبر عن المنافقين أنهم نقضوا العهد، وولوا الأدبار، وفروا من

ساحة القتال.. فقد ذكر ثبات المؤمنين، ووفاءهم بما عاهدوا الله عليه، فقال:

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

يعني ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ﴾ من الثبات في القتال، والبقاء بجانب رسول الله حتىٰ ينصره الله، ويعز دينه، ويهزم أعداءه، وهؤلاء هم الصحابة رضوان الله عليهم، وهم قسمان:

﴿فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ﴾ ووفَّىٰ بعهده، وأدىٰ ما عليه، واستشهد في سبيل الله، وهم كثير

﴿وَمِنْهُم مَّن﴾ هو ثابت مع النبي ﷺ، ويقاتل معه، و ﴿يَنتَظِرُ ۖ﴾ إحدى الحسنين: النصر، أو الشهادة.

﴿و﴾ هؤلاء ﴿مَا بَدَّلُوا۟﴾ العهد ﴿تَبْدِيلًا﴾ لا الذي قضىٰ منهم نحبه، ولا مَن ينتظر.

ومن نعم الله علىٰ هؤلاء المؤمنين: أن الله شرفهم بالصدق فيما عاهدوا الله عليه وذلك:

﴿لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾﴾

أي: ﴿لِيَجْزِىَ ٱللَّهُ﴾ هؤلاء ﴿ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ خيرًا ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ في وفائهم بما عاهدوا الله عليه.

﴿و﴾ كذلك لـ ﴿يُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ علىٰ عدم وفائهم بما عاهدوا الله عليه، وانسحابهم من ساحة القتال ﴿إِن شَآءَ﴾ إذا لم يتوبوا لربهم.

﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ويغفر لهم إن تابوا إلىٰ الله وأنابوا مرة أخرىٰ، وصدقوا في إيمانهم وتوبتهم.

﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا﴾ لمن تاب وآمن ﴿رَحِيمًا﴾ بالمؤمنين جميعًا.

وانتهت غزوة الأحزاب.

﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾

يعني ﴿وَرَدَّ اللَّهُ﴾ بقدرته ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ إلىٰ ديارهم، محملين ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ منكم، ومن هزيمتهم أمامكم، خاصة وأنهم ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا ۚ﴾ **أي**: نصرًا، كانوا يرغبون فيه عليكم.

﴿و﴾ بذلك ﴿كَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ ۚ﴾ حيث سلط عليهم ﴿رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ﴾ [الأحزاب: ٩].

﴿وَكَانَ اللَّهُ﴾ عز وجل ﴿قَوِيًّا﴾ قادرًا عليهم ﴿عَزِيزًا﴾ لا يغلب إرادته أحد.

وقال النبي ﷺ: «**لن تغزوكم قريش بعد عامكم هذا، ولكنكم تغزونهم**» وقد كان، إذْ لم يأتوا للحرب في المدينة بعدها، بل انتقلت ساحة الحرب إلىٰ حيث ديار الأعداء في الحديبية، ومكة، وحنين، وغير ذلك.

وكان من نتائج هذه الغزوة أيضًا ما يقوله الله تعالىٰ:

﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾﴾

﴿و﴾ بعد أن رد الله الذين كفروا إلىٰ ديارهم خائبين ﴿أَنزَلَ﴾ بقدرته ﴿الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم﴾ عاونوهم علىٰ قتال المسلمين، وغدروا بعهدهم مع النبي ﷺ ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ وهم يهود بني قريظة، الذين كانوا يسكنون أسفل المدينة من جهة الجنوب، في منطقة قباء، أنزلهم ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ من حصونهم.

﴿وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ﴾ من المؤمنين؛ بسبب ضعفهم، ونقضهم العهد وغدرهم، وانصراف المشركين عنهم وانتصرتم عليهم؛ حيث صرتم ﴿فَرِيقًا﴾ منهم ﴿تَقْتُلُونَ﴾ و ﴿تَأْسِرُونَ﴾ منهم ﴿فَرِيقًا﴾ آخر.

وبذلك: انتهىٰ الوجود اليهودي تمامًا ونهائيًا بالمدينة المنورة.

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ من بعدهم؛ حيث صارت ملكًا لكم.

﴿و﴾ كذلك أورثكم ﴿أَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ وتدخلوها بعد، يدخل في ذلك خيبر، التي فتحت بعد ذلك، كما يدخل فيها كل أرض تفتح للمسلمين، ويتم جلاء اليهود عنها إلىٰ يوم القيامة، ولعل هذه بشرىٰ بالنصر للمسلمين في أرض فلسطين، إذا وجد من المسلمين مَن يتصف بصفات صحابة رسول الله ﷺ.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا﴾ أي: قادرًا على كل ما أراد، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

يقول العلماء: إن مكارم الأخلاق في أمرين:

التعظيم لله، والشفقة علىٰ خلق الله.

ولمَّا كان أفضل الناس في مكارم الأخلاق هو محمد ﷺ، فقد أرشده ربه إلىٰ الأمر الأول، وهو (التعظيم لله) في أول السورة، حينما قال له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:١].

وهنا يرشده ربه إلىٰ الأمر الثاني: وهو الشفقة علىٰ خلق الله، ويبدأ معه بأولىٰ الخلق بهذه الشفقة: وهن الزوجات، حيث يقول له:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

رُوي أن نساء النبي ﷺ قد سألنه ثياب الزينة، وزيادة النفقة، فنزلت هاتين الآيتين.

وهنا خيَّر النبي ﷺ زوجاته، كما توضح الآيات، والمعنىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ وَخيِّرْهُنَّ.

﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا﴾ وكثرة أموالها: ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ واخترن برغبتكن ذلك؛ وأنا أطلقكن، أي: مَن تختار الحياة الدنيا وزينتها.

و ﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ متعة الطلاق، أي: أعطيكن نفقة المطلقة، ومتعتها.

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ لا ضرر فيه لمن تختار ذلك.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: مرضاتهما، ونعيم ﴿وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾: فجزاؤكن عند الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

وقد اخترن جميعًا رضوان الله عليهنَّ، الله ورسوله والدار الآخرة.

ولمَّا اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، أدّبهن الله تعالىٰ بجملة من الآداب الرفيعة، والأخلاق الكريمة، وهددهن علىٰ ضدِّها، فقال مخاطبًا لهن:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾

يعني ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ﴾ اتقين الله، وابتعدن عن ساحة الفاحشة؛ صيانة لمقام النبوة، وحفاظًا علىٰ مكانتكن في بيت الوحي، حيث إنه ﴿مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ **أي:** بسيئة بليغة القبح: ﴿يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾؛ لأنها ليست كسائر النساء، وزوجها ليس كسائر الرجال، حيث أنْتُنَّ وهو ﷺ.. محل القدوة.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ التضعيف والزيادة في العذاب ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا﴾.

وفي هذا غاية البيان لشرف بيت النبوة، وغاية التأكيد علىٰ جعلهن محل القدوة.

صلّىٰ الله عليك يا سيدي يا رسول الله، ورضي الله عن أمهات المؤمنين أجمعين.

نحن الآن مع الآداب الرفيعة، والأخلاق العالية، والقدوة الحسنة، في بيت النبوة وهذا هو **الأدب الثاني** لنساء النبي ﷺ:

﴿وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

المعنى: ﴿وَمَن يَقْنُتْ﴾ أي: ومن يطع ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا

﴿نُؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ كما كان لها في العذاب علىٰ الفاحشة ضعفين ﴿و﴾ زيادة علىٰ هذا الأجر المضاعف: ﴿أَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ عظيم القدر، وهو الجنة.

ثم يخاطبهن رب العزة زيادة في التشريف بهذه الآداب، فيقول جل وعلا:

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾﴾

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ أي: ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات، بل أنتن أكرم عليّ، وثوابكن أعظم لديَّ، لذلك ﴿إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ﴾ الله حق التقوىٰ، فهذا هو **الأدب الثالث**، وهو:

﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾ إذا كان حديث منكن مع الرجال، من وراء حجاب، فلا يكن حديثكن ليّناً ﴿فَيَطْمَعَ﴾ في حديثكن ﴿ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ﴾ أي: نفاق وريبة.

الأدب الرابع: ﴿وَقُلْنَ﴾ لجميع مَن يتحدث معكن ﴿قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾ أي: قولًا حسنًا، معروفًا بالأدب، بعيدًا عن الخضوع واللين.

وإذا كانت الآداب الإلٰهية لبيت النبوة السابقة تتعلق بالأقوال، فهناك ـ كذلك ـ آداب تتعلق بالأفعال، ومنها ما يلي:

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ﴾ أي الزَمْنَ بيوتكن، فلا تخرجن منها لغير حاجة شرعية، وهذا هو **الأدب الخامس**.

وأما الأدب السادس، فهو ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

والجاهلية الأولىٰ: هي الكفر قبل الإسلام.

والجاهلية الأخرىٰ: هي الفسوق والفجور بعد الإسلام.

وتبرج الجاهلية الأولىٰ: ما كانت تفعله المرأة من المشي بين يدي الرجال، أو المشي

الخليع بين يدي الرجال، أو التكشف أو التعرية للعنق وبعض الشعر، وغير ذلك أمام الرجال.

والمعنىٰ: ولا تكنَّ متبرجات إذا خرجتن، كما كان نساء الجاهلية الأولىٰ يتبرجن.

والأدب السابع: ﴿وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وحافظن عليها بصفة خاصة.

والأدب الثامن: ﴿وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ وهي الإحسان إلى المخلوقين.

والأدب التاسع: ﴿وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ﴾ في كل ما يرضي الله ورسوله.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ﴾ ويشرع هذه الآداب لأمرين:

﴿لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ﴾ أي: الذنوب وآثامها، يا ﴿أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾.

﴿و﴾ كذلك ﴿يُطَهِّرَكُمْ﴾ من نجاسة الآثام، والتحلي بهذه الأخلاق ﴿تَطْهِيرًا﴾ بليغًا زائداً عن تطهير أهل التقوى من سائر النساء.

ويلاحظ جيدًا أنه في ذكر هذه الآداب دعوة للاقتداء والتحلي بمكارمها من النساء المسلمات وتنفير لهن ـ أيضًا ـ علىٰ نواهيها.

وأما الأدب العاشر فهو: ﴿وَٱذْكُرْنَ﴾ في أنفسكن دائمًا، ولغيركن تعليمًا ووعظًا ﴿مَا يُتْلَىٰ﴾ علىٰ النبي ﷺ، ويوحىٰ إليه ﴿فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ أي: القرآن ﴿وَٱلْحِكْمَةِ﴾ أي: السنة النبوية المطهرة.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ عالمًا بغوامض الأشياء وخوافيها ﴿خَبِيرًا﴾ بأفعالكن وأقوالكن، فاحذرن مخالفة أمره تعالىٰ ونهيه، وكذلك معصية رسوله.

هذا، ويذكر المولىٰ سبحانه وتعالىٰ الصفات العليا للرجل والمرأة، والتي يستحق بها أهلها مغفرة الله تعالىٰ، ورضوانه، ويرفع بها قدرهما، حيث يقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّآئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

يُروىٰ أن بعض أزواج النبي ﷺ سألوه قائلين له: إن الله ذكر الرجال في القرآن، ولم يذكر النساء بخير، أليس فينا خير نذكر به؟ إنا نخاف أن لا تقبل منا طاعة!! فنزلت هذه الآية، وفيها مساواة النساء بالرجال: في العمل والأجر، إذْ تذكر عشر صفات ينبغي أن تكون في الرجال والنساء علىٰ السواء:

الأولىٰ: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ﴾.

والمسلم: مَن أسلم أمره لله، ورضي شرعه، وانقاد له، وعمل به، وفوض أمره لله، وتوكل عليه.

الثانية: ﴿وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾.

والمؤمن: هو المصدق بالله ورسوله، ولله ولرسوله في كل شيء.

الثالثة: ﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ﴾.

والقانت: هو المواظب علىٰ طاعة الله ورسوله.

الرابعة: ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ﴾.

والصادق: هو مَن صدق في نيته، وقوله، وفعله، ولا يعرف الكذبُ إليه طريقًا.

الخامسة: ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ﴾.

والصابر: هو المحافظ علىٰ الطاعة، البعيد عن المعصية، الراضي في البلاء، الثابت في ميدان الجهاد.

السادسة: ﴿وَٱلْخَٰشِعِينَ وَٱلْخَٰشِعَٰتِ﴾.

والخاشع: هو المتواضع لله، بقلبه وجوارحه، والخائف من غضبه وعذابه، المراقب لله في كل أحواله.

السابعة: ﴿وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ﴾.

والمتصدق: هو الباذل لماله، دون بخل به، في الفرض، والنفل، والصِّلات.

الثامنة: ﴿وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ﴾.

والصائم: هو الممتنع عن شهوة الكلام فيما لا يفيد، وشهوة البطن الحرام، أو التي تشغل عن العبادة.

التاسعة: ﴿وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ﴾.

والحافظ لفرجه: هو مَن لا يتعرَّى أمام الغير، ولا يطلع علىٰ عورة الغير، والذي يمتنع عن شهوة الفرج الحرام، أو التي تشغل عن الطاعة.

العاشرة: ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ﴾.

والذاكر لله: هو مَن يسبح بحمد الله، ويقرأ القرآن، ويشتغل بالعلم النافع.

هؤلاء ﴿أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً﴾ منه لذنوبهم ﴿وَأَجْرًا﴾ عنده ﴿عَظِيمًا﴾ لهم، وهو الجنة.

لمَّا كانت أول هذه الصفات المذكورة هي الإسلام، كان من الضروري بيان أهم مظاهر هذا الإسلام، وهو التسليم الكامل لله ولرسوله، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾

يعني إذا حكم الله ورسوله بشيء في أي أمر، فليس لأحد مخالفته، بل لا اختيار لأحد في هذه الحالة.

﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بعد معرفة هذا الحكم، في أي أمر أو نهي: ﴿فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا﴾ وهذا الضلال المبين يكون كفرًا إذا عاند حكم الله، وأنكره، ويكون فسوقًا إذا قبل الأمر، وآمن به، ولكنه لم يفعله.

وإذا كان من أهم مظاهر الإسلام التسليم الكامل لله ولرسوله، فإن السورة تذكر واقعة عملية في الحياة النبوية، تعطينا لونًا من هذا التسليم؛ تعليمًا لنا، وتدريبًا علىٰ حسن الاقتداء، يقول تعالىٰ للنبي ﷺ:

﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾﴾

هذه الآية الكريمة لها قصة: يحرفها أعداء الإسلام، ويطعنون بها علىٰ دين الله، ويتغامزون بها علىٰ رسول الله ﷺ، وهذه القصة باختصار شديد في أصح رواياتها: أن النبي ﷺ خطب زينب بنت جحش ابنة عمته لزيد بن حارثة الذي كان عبده، ثم أعتقه وتبناه، ثم أبطل الإسلام التبني، فأصبح مولاه وفتاه، لذلك: لم ترض زينب النسيبة الشريفة بهذا الزواج..!!

فلما نزل قوله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ﴾ [الأحزاب: ٣٦]: قبلت. وتزوجت زينب زيدًا.

ثم حدثت بينهما خلافات: وصلت إلىٰ حافة الطلاق.

وأراد الله عز وجل أن يلغي عادة جاهلية.. وهي: عدم الزواج من زوجة الابن المُتَبَنَّىٰ.. فأعلم محمدًا ـ ﷺ ـ بأنه: سيكون لها زوجًا.

وجاء زيد يشتكي لرسول الله ـ ﷺ ـ حياته مع زينب، ويريد طلاقها.

ماذا يفعل رسول الله ﷺ.. ؟

أيقول له طلقها، وأتزوجها أنا، ويُظهر ما بنفسه من أمر زواجه منها، كما علم بالوحي: فيتحدث الناس..!!

أو ينصحه بالصبر وحسن العشرة، ويقول له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ حتىٰ يأذن الله بأمر آخر، يكون فيه المخرج من هذا المأزق.

واختار الثانية..!!

وقال له: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾.

ونزل القرآن يشرع ويعاتب ويقول: ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالحرية: ﴿أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ أي: زينب ﴿وَٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ ولا تطلقها؛ فإن أبغض الحلال عند الله الطلاق.

تقول له ذلك، ﴿و﴾ أنت ﴿تُخْفِى فِى نَفْسِكَ﴾ ما أوحي إليك من زواجها، و ﴿مَا﴾ هو ﴿ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ ومظهره للناس؛ لأنه تشريع..!!

﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ وكلامهم، ﴿وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾ في طاعته..!!

وبالفعل.. لم يعلم زيد ولا الناس، ما في نفس الرسول ﷺ، مما أوحي إليه في هذا الموضوع. واستمرت الحياة الزوجية فترة بين زيد وزينب.

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ أي: حاجته في عيشته منها، واستحالت المعيشة بينهما: طلقها، وانقضت عدتها؛ تزوجها النبي ﷺ تنفيذاً لأمر الله تعالىٰ، حيث يقول سبحانه: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ بوحينا، وأمرنا.

وكان ذلك الحادث!! ومعك أنت يا محمد..!!

﴿لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ﴾ زواجهم من ﴿أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ أي: إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ نافذاً وكان شرعه مطبقًا ﴿مَفْعُولًا﴾ كائنًا لا محالة.

ثم يرد الله عز وجل علىٰ مَن تغامزوا أو يتغامزون علىٰ النبي ﷺ في هذا الموضوع بقوله عز وجل:

﴿مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

يعني ليس علىٰ النبي ﷺ حرج في تنفيذ شرع الله، المخالف لعاداتكم، فهذه ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى﴾ الأنبياء ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟﴾ وسبقوا ﴿مِن قَبْلُ ۖ﴾ أي: من قبلِ بعثةِ محمد ﷺ.

حيث لم يكن رب العزة يأمرهم بشيء، ويكون عليهم فيه حرج، أو لديهم خشية من أحد.

﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ الذي قضاه وقدره ﴿قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ حكمًا نافذًا لا محالة، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

هؤلاء الأنبياء هم:

﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾﴾

نعم، هم ﴿ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ﴾ إلىٰ الناس بأمانة، ويطبقونها كاملة، وبدقة ﴿وَيَخْشَوْنَهُۥ﴾ وحده، مرضاة لله ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا﴾ أبدًا ﴿إِلَّا ٱللَّهَ ۗ﴾.

وبذلك فلا يمنعهم بطش، ولا خوف، ولا أذى، من تبليغ رسالات الله إلىٰ البشر.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ لهم ﴿حَسِيبًا﴾ معينًا وناصرًا ومؤيدًا. **ثم إنه..**

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

﴿بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

يعني: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ﴾ حقيقي من صلبه ﴿مِن رِّجَالِكُمْ﴾ وتزوج مطلقته؛ حتىٰ تهيجوا هذا الهياج، وتتحاملوا عليه هذا التحامل ﴿وَلَٰكِن﴾ هو رَسُولُ ﴿ٱللَّهِ﴾، فأقواله، وأفعاله، وإقراراته: تشريع، ﴿و﴾ هو ﴿خَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ فلا نبي بعده، ولا تشريع بعده، لذلك لابد من كمال البيان وتمام التشريع، في حياته.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ مما تقولون ﴿عَلِيمًا﴾ وسيجازيكم عليه.

ثم يأمر الله عباده المؤمنين بذكره وتسبيحه؛ وصولًا لهداية الله، ونوالًا لمرضاته، وفوزًا بجناته، إذ يقول الله سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

ذكر الله تعالىٰ فريضة أمر بها، لا حد لها، ولا وقتًا مخصوصًا بها، ولا عذر في تركها.

بل هي في كل وقت وحال من ليلٍ أو نهار.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ﴾ ونعمه ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ بالليل والنهار.

﴿و﴾ كذلك ﴿سَبِّحُوهُ﴾ ونزهوا ذاته عما لا يليق ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ أول النهار وآخره، حيث إنه سبحانه ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ﴾ يرحمكم ﴿وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ﴾ يستغفرون لكم: ﴿لِيُخْرِجَكُم﴾ بفضله ﴿مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ من الضلالة إلى الهدى.

﴿و﴾ هكذا ﴿كَانَ﴾ الله ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ **وهذا في الدنيا.**

وفي الآخرة: ﴿تَحِيَّتُهُمْ﴾ أي هؤلاء المؤمنين ﴿يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ﴾ ويرونه ﴿سَلَٰمٌ﴾ من الله لهم.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ﴾ كذلك ﴿أَجْرًا كَرِيمًا﴾ وهو الجنة وما فيها مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر علىٰ قلب بشر.

أرشد الله النبي ﷺ فيما سبق - إلىٰ آداب التعامل مع ربه في قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١].

﴿وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [الأحزاب: ٢].

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٣].

وأرشد ـ كذلك ـ إلىٰ آداب التعامل مع أهله خاصة، في قوله تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ﴾ [الأحزاب: ٤].

وهنا يرشده إلىٰ آداب التعامل مع الخلق عامة، فيقول جل وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾﴾

في هذه الآيات الكريمات: يصف ربنا نبيه ﷺ، بخمس صفات، ويطالبه بخمسة أشياء:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ برسالتنا إلىٰ العالمين وجعلناك موصوفًا بهذه الصفات الخمسة:

الأولىٰ: ﴿شَٰهِدًا﴾ لله بالوحدانية، وعلىٰ الناس يوم القيامة.

الثانية: ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ للمؤمنين بفضل الله ورضوانه.

الثالثة: ﴿وَنَذِيرًا﴾ للكافرين والعصاة، بالعذاب.

الرابعة: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى﴾ دين ﴿ٱللَّهِ﴾ وشرعه ﴿بِإِذْنِهِۦ﴾ هو سبحانه، وليس من عندك أنت.

الخامسة: ﴿وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ هاديًا واضحًا، يستفيد من هديك جميع البشر.

وكلفناك بهذه المطالب الخمس:

الأول: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ عطاءً واسعًا في الجنة.

الثاني: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ في أمر الدعوة، ولا فيما يطلبون من تغيير أو إهمال أحكامها، أو بعض ذلك.

الثالث: ﴿وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ أي: ولا تطع المنافقين، فلا تسمع لهم ولا منهم، ما يقولون.

الرابع: ﴿وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾ أي: اترك مجازاتهم على أذيتهم لك، حتى نأمرك بالذي تفعله معهم.

الخامس: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ فإن مَن توكل على الله يسر عليه كل عسير.

﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾ يكفيك ما تريد.

وبعد، فإن الآيات التالية تأتي بنموذج من أحكام الإسلام التي يدعو إليها النبي ﷺ، والذي يكون سراجًا هاديًا للناس في حياتهم بها، يقول ربنا سبحانه وتعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

يعني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ﴾ أي: عقدتم عقد الزواج على ﴿ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ أو الكتابيات ﴿ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ أي: تجامعوهن، فذلك النكاح يترتب عليه ثلاثة أشياء:

الأول: أنه لا عدة على هذه المطلقة ﴿فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا﴾ أي: تحصونها، وهذا: في كل امرأة طلقت قبل الدخول، إلَّا المتوفى عنها زوجها، قبل الدخول، فعليها أن تعتد أربعة أشهر وعشرًا.

الثاني: لها المتعة، وهي النفقة الواجبة لها،على قدر حاله ﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ وذلك إن لم يسم لها مهر.

الثالث: التسريح بالحسنى ﴿وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ أي: من غير إضرار منهن.

ثم تأتي الآيات بعد ذلك بنموذج آخر من أحكام الإسلام، الخاصة بالنبي ﷺ، إذ يقول ربنا عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ

أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾

والمعنى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ﴾ من النساء سبعة أصناف:

الصنف الأول: ﴿أَزْوَٰجَكَ﴾ اللاتي في عصمتك، ﴿و﴾ هن ﴿ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ﴾ دفعت ﴿أُجُورَهُنَّ﴾ أي: مهورهن، وكنّ تسعًا رضي الله عنهن.

الصنف الثاني: ﴿وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ﴾ من غنائم الحرب، بالسبي من الكفار، مثل السيدة صفية، والسيدة جويرية، حيث ملكهما ﷺ، فأعتقهما وتزوجهما.

الصنف الثالث والرابع والخامس والسادس: ﴿وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾.

وكانت الهجرة: شرطًا في حل هذه الأصناف الأربعة، ثم نسخ.

الصنف السابع: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِىِّ﴾ بلا مهر.

ولهذا الصنف شرطان.. هما: موافقة النبي ﷺ ﴿إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾.

وخصوصيَّة النبي ﷺ به ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وأما غير النبي ﷺ في الواهبة نفسها، فلا تحل له إلَّا بمهر.

هذا الذي ذكر حكم النبي ﷺ مع نسائه، ولكي لا يظن واحد من المؤمنين، أن له ما للنبي ﷺ من هذه الخصائص، فإن ربنا عز وجل يقول: ﴿قَدْ عَلِمْنَا﴾ أي: عندنا علم ﴿مَا فَرَضْنَا﴾ وأوجبنا ﴿عَلَيْهِمْ﴾ **يعني:** على المؤمنين ﴿فِىٓ﴾ حق ﴿أَزْوَٰجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ﴾ ونبيّنها لهم، أي: في غير هذا الموضع.

ثم يقول ربنا للحبيب ﷺ، وقد وسعنا لك في أمر الزواج: ﴿لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ وضيق، وتكون في فسحة؛ من الأمر بما يتناسب مع دعوتك، ونشر رسالتك.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ لجميع الذنوب ﴿رَّحِيمًا﴾ بعباده.

كذلك: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِيٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ وَمَنِ ٱبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥١﴾﴾

والمعنى: لا حرج عليك في القسم بالنسبة لمن ذُكِرْنَ من النساء، والأمر لك في شأنهن، فتقدم مَن شئت، وتؤخر مَن شئت.

﴿تُرْجِي﴾ أي: تؤخر ﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ عن نوبتها ﴿وَتُـْٔوِيٓ﴾ تقدم ﴿مَن تَشَآءُ﴾ منهن عن نوبتها، ولا حرج عليك ﴿و﴾ كذلك ﴿مَنِ ٱبْتَغَيْتَ﴾ أردته ﴿مِمَّنْ عَزَلْتَ﴾ من هؤلاء النسوة، ﴿فَلَا جُنَاحَ﴾ أي: حرج ﴿عَلَيْكَ﴾ أيضًا.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التخيير لك في هذا الموضوع ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾.

حيث إنهن إذا علمن أن هذا التفويض لك هو من عند الله، استراحت نفوسهن، وذهب التغاير بينهن، وجعل الرضا منهن، وقرت العيون.

فإذا قسمت بعد ذلك استبشرن، وفرحن بذلك، وعرفن جميلك عليهن، في تسويتك وإنصافك وعدلك معهن.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾ بذات الصدور ﴿حَلِيمًا﴾ لا يعاجل بالعقوبة عند المخالفة.

هذا، ولمَّا خير رسول الله ﷺ أزواجه عندما نزل عليه قوله تعالىٰ من نفس السورة: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَـٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩]..!!

وقد عرفنا أنهن جميعًا، رضوان الله عليهن، قد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة وذلك فيما سبق، نقول لمَّا اخترن ذلك: كافأهن الله تعالىٰ، وذلك بقوله للنبي ﷺ:

﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ ٱلنِّسَآءُ مِنۢ بَعْدُ وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا ﴿٥٢﴾﴾

أي: ﴿لَّا يَحِلُّ لَكَ﴾ يا محمد ﴿ٱلنِّسَآءُ﴾ أي: الزواج بهن ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ أي: من بعد هؤلاء الزوجات التسع، اللآتي قد اخترن الله ورسوله والدار الآخرة، ﴿وَلَآ﴾ يحل لك كذلك ﴿أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَٰجٍ﴾ عن طريق طلاق واحدة وزواج أخرىٰ مكانها، حتىٰ ﴿وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾، وبذلك أصبح التسع زوجات هُنَّ نصاب النبي ﷺ، كما أن الأربع الزوجات هن نصاب الرجال من أمته.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ رَّقِيبًا﴾ أي: حفيظًا.

يقول بعض العلماء: وكانت هذه الآية، وهذا الحكم، وهو تحريم الزواج علىٰ النبي من غير هؤلاء الزوجات التسع، أو الاستبدال بهن الإماء؛ مكافأة لهن علىٰ اختيارهن لله ولرسوله والدار الآخرة، ثم نسخ هذا الحكم وأبيح للنبي ﷺ أن يتزوج ما يشاء، ومع ذلك لم يقع منه بعد ذلك زواج.

أيها الأحبة في الله.. إذا كان ما تقدم هو بعض حقوق نساء النبي ﷺ عليه،فإن الله تبارك وتعالىٰ يذكر عقيبها بعض حقوقهن ـ رضي الله عنهن ـ علىٰ أمة الحبيب ﷺ.. فيقول جل وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾﴾

هذه الآية الكريمة توضح أحكامًا أربعة علىٰ المسلمين، هي من حقوق النبي ﷺ وآل بيته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

الحكم الأول: عدم دخول بيوت النبي ﷺ بدون إذن.

يقول تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ﴾ دخولها من النبي ﷺ.

فمثلًا: إذا دعيتم ﴿إِلَىٰ طَعَامٍ﴾ فادخلوا ﴿غَيۡرَ﴾ متطفلين، وغير ﴿نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ﴾ منتظرين موعد نضجه، لتدخلوا بدون دعوة ﴿وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ﴾ وكلوا.

﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ﴾ وانتهيتم من أكلكم ﴿فَٱنتَشِرُواْ﴾ واخرجوا ﴿وَلَا﴾ تمكثوا وأنتم ﴿مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ مع بعضكم البعض.

حيث ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ الفعل ﴿كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ﴾ ممن يفعله ﴿فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ﴾ أن يُخرج مَن يفعل ذلك.

﴿وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ﴾ بيان ﴿ٱلۡحَقِّۚ﴾ والأمر به.. ولذلك قال: ﴿فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ﴾ .. ويلاحظ أن هذا تأديب من الله للثقلاء.

الحكم الثاني: فرضية الحجاب علىٰ أزواج النبي ﷺ.

يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلۡتُمُوهُنَّ﴾ أي: زوجات النبي ﴿مَتَٰعٗا﴾ حاجة ﴿فَسۡـَٔلُوهُنَّ﴾ هذه الحاجة ﴿مِن وَرَآيِٕ حِجَابٖ﴾ ساتر.

﴿ذَٰلِكُمۡ﴾ الحكم ﴿أَطۡهَرُ لِقُلُوبِكُمۡ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ من خواطر الشيطان، وأسلم من عوارض الفتن.

الحكم الثالث: تحريم إيذاء النبي ﷺ ماديًّا أو معنويًا.

يقول تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمۡ أَن تُؤۡذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾.

يعني كل ما مُنعتم فيه مع النبي ﷺ، أو مع زوجاته، فالتزموا به وحافظوا عليه، ولا تؤذوه بالمخالفه فيه، أو في غيره.

الحكم الرابع: تحريم نكاح أزواج النبي ﷺ لأحد من بعده، حيًّا أو ميتًا.

يقول تبارك وتعالىٰ: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزۡوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعۡدِهِۦٓ أَبَدًاۚ﴾.

ويختم ربنا هذه الأحكام بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمۡ﴾ أي: مخالفة هذه الأحكام ﴿كَانَ عِندَ ٱللَّهِ﴾ ذنبًا ﴿عَظِيمًا﴾ أي: فاجتنبوه.

ثم قال عز وجل: ﴿إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا﴾ من إيذاء النبي ﷺ، أو نكاح زوجاته، ﴿أَوْ تُخْفُوهُ﴾ في أنفسكم، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ فيجازيكم عليه.

في هذه الأحكام كانت فرضية الحجاب علىٰ زوجات النبي ﷺ. ولذلك عندما فرض، قال آباء هؤلاء الزوجات وأبناء بعضهن: يا رسول الله، أَوَ نُكلِّمهُنَّ نحن أيضًا من وراء حجاب، فأنزل الله تعالىٰ توضيحًا للدائرة التي لا يجب الاحتجاب منها، قوله سبحانه وتعالىٰ:

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ ۚ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

أولًا: المراد من قوله تعالىٰ: ﴿وَلَا نِسَآئِهِنَّ﴾ النساء المؤمنات، والمراد من ﴿وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ﴾ من الإماء، دون العبيد الذكور.

وعلىٰ ذلك فمعنىٰ الآية: أنه لا حرج ولا إثم علىٰ نساء النبي أن يتعاملن مع هذه الأصناف المذكورة في الآية، بدون حجاب.

ثم يقول تعالىٰ لهن: ﴿وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ﴾ فيما أُمرتن بالتحجب منه من غير هؤلاء.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا﴾ رقيبًا وعالمًا ومجازيًا.

وبعد بيان هذه الأحكام، يبيّن الله عز وجل منزلة النبي ﷺ عنده في الملأ الأعلىٰ، ويأمر أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، وذلك: يوضح أهمية التقيد بالآداب والأحكام السابقة، مع رسول الله ﷺ، وكذلك تعظيمه في العالمين العلوي والسفلي حيث يقول المولىٰ عز وجل:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾﴾

صلاة الله علىٰ النبي: ثناؤه عليه، ومَدْحُه له.

وصلاة الملائكة: دعاء واستغفار.

وصلاة الأمة: الدعاء والتعظيم لأمره.

وقد أمر الله تعالىٰ عباده بالصلاة والتسليم عليه، **أي**: صلوا عليه وسلموا، وانقادوا لأمره وحكمه ؛ طلبًا للثواب، والقرب منه.

صلىٰ الله وسلم عليك يا سيدي يا رسول الله.

ثم يهدد الله عز وجل مَن يؤذون الله تعالىٰ ورسوله ﷺ بقوله عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾﴾

يعني ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ بما يكرهانه كمن يكفرون بالله، وينسبون إليه الولد أو الشريك.

ومَن يكذبون النبي ﷺ، أو يحاربون سنته وشريعته هؤلاء:

أولًا: ﴿لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾ وطردهم من رحمته ﴿فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾.

ثانيًا: ﴿أَعَدَّ لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابًا مُّهِينًا﴾ أي: بالغ الغاية في الإهانة والتحقير.

ولأن إيذاء المؤمنين والمؤمنات مما يكرهه الله ورسوله، فقد هدد الله عز وجل ـ كذلك ـ من يفعل ذلك، أو يتسبب فيه.. بقوله سبحانه:

﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾﴾

أي: إن ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ بأي لون من ألوان الإيذاء، ﴿بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟﴾ **أي**: دون ذنب جنوه، أو إثم ارتكبوه، ووجب فيه الحد، أو التعزير ﴿فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟﴾ يعني تحملوا ﴿بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ أي: حمَّلوا أنفسهم البهتان والكذب والزور، والذنب الواضح الجلي.

ويدخل في هذا، الإيذاء المادي: كالتعذيب، والتخويف، والمعنوي: كالسخرية، والاستهزاء، والتنقيص من قدرهم.

ولمَّا نهىٰ الله تبارك وتعالىٰ عن إيذاء المؤمنات، أمرهن بفعل ما **يدفع الأذىٰ عامة** عنهن من التستر، والبعد عن مواطن الشبهات، **حيث قال سبحانه:**

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

في هذه الآية الكريمة يأمر الله تعالىٰ رسوله ﷺ، أن يأمر النساء المسلمات ـ خاصة أزواجه وبناته؛ لشرفهن، وكونهن قدوة لغيرهن ـ أن يدنين عليهن من جلابيبهن، وأن يتسترن ويحتشمن في ملابسهن.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التستر ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أي: أقرب ﴿أَن يُعْرَفْنَ﴾ به، أنهن كريمات فضليات ﴿فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ من أهل الفسق، الذين يتعرضون للنساء بما لا يليق.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تكشفت قبل أن تعرف هذا الحكم، والتزمت به بعد أن عرفته.

ولمَّا ذكر ربنا ثلاثة أصناف من المجاهرين بالإيذاء وهم: الذين يؤذون الله، والذين يؤذون رسول الله، والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا، وهددهم.

ذكر سبحانه كذلك ثلاثة أصناف من المسرِّين بالإيذاء وهم: المنافقون، والذين في قلوبهم مرض، والمرجفون في المدينة، وهددهم بقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

أي: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ ويتوقف.

﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ﴾ وهم الذين يظهرون الإيمان، ويبطنون الكفر عن نفاقهم.

﴿وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ أي: شك وغل وفجور، حامل علىٰ المعاصي عن شكهم، وغلهم، وفجورهم.

﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ وهم الذين يُرَوِّجون الإشاعات الكاذبة عن فعلهم هذا، لئن لم ينته هؤلاء عن عداوتهم للمسلمين، وفجورهم فيهم، ونشرهم الإشاعات الكاذبة بينهم ﴿لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾ أي: لنسلطنك عليهم، **وهذا أولًا** .

وثانيًا: ﴿ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا﴾ **أي:** لتطردنهم من المدينة سريعًا، وهم ﴿مَّلْعُونِينَ ۖ﴾ مبعدين من رحمة الله.

وثالثًا: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُوٓاْ﴾ أي: وجدوا بعد طردهم ﴿أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلًا﴾.

ويلاحظ: أن هذه هي سُنَّةُ ﴿ٱللَّهِ﴾ في أمثالهم من ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ﴾ أي: سبقوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الأمم الماضية ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي: تغييرًا.

ولمَّا بيّن الله عز وجل حالهم وأمثالهم في الدنيا من أنهم: يهانون، ويلعنون، ويقتلون.. بيّن كذلك حالهم وأمثالهم في الآخرة، وذكرهم بالقيامة وما يكون لهم فيها، فقال تبارك وتعالىٰ:

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ﴾ هؤلاء وأمثالهم ﴿عَنِ﴾ موعد ﴿ٱلسَّاعَةِ﴾ وهي يوم القيامة، سؤال استهزاء واستنكار واستعجال، أجبهم، و ﴿قُلْ﴾ لهم: لا علم لي بذلك ﴿إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ وحده سبحانه.

وقل لهذا السائل: ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾.

فهل آمنت بها؟ وماذا أعددت لها..؟ يا أيها المستهزؤن..!!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ أي: طردهم من رحمته.

﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ نارًا شديدة، يدخلونها ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا﴾ لا خروج لهم منها، ولا زوال لهم عنها، كما أنهم ﴿لَا يَجِدُونَ﴾ لهم فيها ﴿وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ينقذهم من عذابها.

هؤلاء: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ﴾ حينئذ ﴿يَقُولُونَ﴾ بتحسر وندم لا يفيد: ﴿يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠﴾ حتىٰ لا نلقىٰ هذا المصير.

﴿وَقَالُوا۟﴾ معللين لكفرهم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا﴾ رؤساءنا ﴿وَكُبَرَآءَنَا﴾ ذوي الحسب والنسب فينا، واعتقدنا أن عندهم شيئًا، وأنهم علىٰ شيء ﴿فَأَضَلُّونَا

﴿ٱلسَّبِيلَا۠﴾ أي: ضللونا عن طريق الهدىٰ، ثم يدعون عليهم قائلين: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ﴾ جزاء كفرهم هم، وجزاء إغوائهم لنا، ﴿وَ﴾ كذلك ﴿ٱلْعَنْهُمْ﴾ واطردهم من رحمتك ﴿لَعْنًا كَبِيرًا﴾ أي: طرداً شديداً.

لقد هدد الله كل الذين يؤذون الله ورسوله والمؤمنين بصفة عامة،بعذاب أليم، فيما سبق من الآيات الكريمة، وهنا يحذر المؤمنين بصفة خاصة، من إيذاء النبي ﷺ بأي لون من الألوان.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾﴾

يعني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا﴾ تؤذوا نبيكم، و ﴿تَكُونُوا۟﴾ معه بذلك ﴿كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْا۟ مُوسَىٰ﴾ بوصفه بما ليس فيه ﴿فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُوا۟﴾ عنه ﴿وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا﴾ أي: صاحب منزلة عالية.

ثم يرشد الله المؤمنين إلىٰ ما ينبغي أن يصدر منهم من الأفعال والأقوال، فقال عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ عليكم بأمرين؛ لتنالوا نتيجتين طيبتين: **أما الأمران فهما:**

الأول: ﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل الخير، وترك الشر.

الثاني: ﴿وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا﴾ أي: صدقًا صائبًا.

وأما النتيجتان فهما:

الأولىٰ: ﴿يُصْلِحْ لَكُمْ﴾ ربكم ﴿أَعْمَٰلَكُمْ﴾ فتكون سببًا في دخولكم الجنة.

الثانية: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ السابقة بمحوها، والمستقبلة بإلهامكم التوبة منها.

هذا، وبتقواكم لله، وقولكم قولًا سديدًا: تكونوا قد أطعتم ربكم.

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ﴾ في الدنيا والآخرة ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾.

وليكن معلومًا أن تقوىٰ الله والقول السديد ـ كما هو واضح ـ طاعة..

obeikandl.com

والطاعة من الفروض.. والفروض تكليف.. والتكليف أمانة.. وفي حمل الأمانة مشقة، لذلك يقول ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

يعني ﴿إِنَّا عَرَضْنَا﴾ حمل الأَمَانَةِ، وهي الفروض التي في فعلها ثواب، وفي تركها عقاب ﴿عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ حيث خلق ربنا فيهما فهمًا ونطقًا.

أتدرون ماذا كان موقفهم..؟

يقول ربنا سبحانه: ﴿فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا﴾ من غير معصية؛ حيث ﴿أَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ أي: من عدم قدرتهم علىٰ القيام بواجباتها؛ تعظيمًا لدين الله، فقبل الله اعتذارهما، وعرضها علىٰ الإنسان، ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ﴾ علىٰ ضعفه، في الوقت الذي اعتذر عنها ما هو أقوىٰ منه، ولذلك يقول ربنا عز وجل: ﴿إِنَّهُۥ﴾ أي: الإنسان ﴿كَانَ ظَلُومًا﴾ لنفسه ﴿جَهُولًا﴾ بحجمه وقدره؛ حيث حملها، ولم يف بها.

وكان حملها علىٰ هذا النحو: ﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ الذين ظلموا فحملوا الأمانة، وجهلوها فخانوها.

﴿وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ لوفائهم بعهدهم، وأدائهم للأمانة التي حملوها.

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا﴾ ساتراً للتائبين ﴿رَّحِيمًا﴾ دائم الرحمة بالمؤمنين.

* * *

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة سَبَأ

هذه السورة مكية، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾

نعم ﴿ٱلْحَمْدُ﴾ المطلق في الدنيا والآخرة ﴿لِلَّهِ﴾ رب العالمين.

﴿ٱلَّذِى لَهُۥ﴾ جميع ﴿مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ وما بينهما، ملكًا وتصرفًا.

﴿و﴾ الذي ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ﴾ المطلق ﴿فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ حيث يحمده أهل الجنة؛ سرورًا بالنعيم، وتلذذًا بما نالوا من الأجر العظيم.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في أقواله، وأفعاله، وشرعه، وقدره ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بخلقه.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الذي ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ﴾ ما يدخل ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ كماء وكنوز، وغيرهما ﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ كنبات وغيره.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه الذي يعلم ﴿مَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من رزق وغيره ﴿وَمَا يَعْرُجُ﴾ أي: يصعد ﴿فِيهَا﴾ من عمل للعباد، وغيره.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلرَّحِيمُ﴾ بعباده؛ حيث ينزل إليهم ما يحتاجون إليه ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ عن ذنوبهم إذا تابوا إليه.

هذا هو الإله العظيم، صاحب هذه النعم العظيمة كفر به أناس من خلقه، وأنكروا لقاءه..!!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ ۖ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ ۖ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله إنكارًا للبعث: ﴿لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ﴾ وليس هناك حساب ولا جزاء.

﴿قُلْ﴾ لهم ردًا على إنكارهم: ﴿بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ أي: نعم، لتأتينكم وربي ﴿عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ﴾ كله، الذي ﴿لَا يَعْزُبُ﴾ لا يغيب ﴿عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ﴾ مما ﴿فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ ولا يغيب عنه مثقال ذرة مما ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

كما أنه لا كل ذلك ﴿وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا﴾ وهو مدون ومسجل ومذكور ﴿فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ وهو اللوح المحفوظ فكيف لا يبعثكم، حتى وإن تلاشت، وتفرقت وغابت أجزاؤكم؟

ثم بيّن تعالى حكمته في إعادة الأبدان وقيام الساعة، بقوله سبحانه:

﴿لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴿٥﴾﴾

أي: ﴿لِيَجْزِىَ﴾ الله في يوم الساعة هذا!!

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ جزاءً حسنًا يبينه ربنا سبحانه بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ حسن في الجنة ﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ سَعَوْ﴾ في الصد عن سبيل الله، وتكذيب الرسل، وإبطال ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ أي: القرآن ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لنا، ظنًا منهم أننا لن نقدر عليهم، ولن نبعثهم ولن نعاقبهم، فلهم سوء الجزاء الذي يبينه ربنا سبحانه بقوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ﴾ وهو أسوأ العذاب ﴿أَلِيمٌ﴾ غاية الألم.

وهناك حكمة أخرى لإعادة الأبدان، وقيام الساعة هي:

﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٦﴾﴾

يعني ﴿وَيَرَى﴾ المؤمنون من أهل الكتاب ومن أتباعك، وهم ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ حينما يعاينون القيامة وأحوالها، أن ﴿ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ وأخبر بما يرون، وهو القرآن: هُوَ الحقُّ الثابتُ من عندِ اللهِ.

﴿و﴾ يستيقنون أنه كان ﴿يَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ﴾ وهو دين الإسلام، المؤدي للنجاة من أهوال هذا اليوم.

ومع ظهور أمر الساعة، ومع وضوح الأدلة علىٰ وقوعها، فإن الكفار يستهزؤن ويتعجبون من الإخبار عنها، يقول عز من قائل:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿٧﴾﴾

أي: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ استهزاءً لبعضهم البعض: ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ لم يصرحوا باسمه، مع أنه في غاية الشهرة بينهم، وهو محمد ﷺ؛ تقليلًا لشأنه ﴿يُنَبِّئُكُمْ﴾ يخبركم أنكم ﴿إِذَا﴾ متم، ودفنتم، و ﴿مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أي: وبليتم تمامًا ﴿إِنَّكُمْ﴾ بعد كل ذلك ﴿لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وتبعثون..؟

ثم لم ينتظروا إجابة لبعضهم، بل أجابوا هم قائلين:

﴿أَفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۗ بَلِ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ ﴿٨﴾﴾

ما الذي دفعه إلىٰ ما يقول؟ هل يكذب علىٰ الله؟ أو أنه أصيب بمس الجنون؟

ويرد عليهم رب العزة استهزاءهم بقوله تبارك وتعالىٰ:

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴿٩﴾﴾

أي: لا هو افتراه على الله كذبًا، ولا هو به جنة، بل هم في كمال اختلال العقل، وغاية الضلال عن الفهم والإدراك، الذي هو الجنون حقيقة، وفيما يؤدي إليه من العذاب، ولذلك: يقولون ما يقولون!!

﴿أَفَلَمْ يَرَوْا﴾ ويـــنـــظـــروا ﴿إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ فيعرفوا عظمة الله، وقدرته؛ فيؤمنوا به، وبالبعث؟

إنهم لو نظروا نظر اعتبار، لآمنوا ولكنهم عموا، فأنكروا، وكذبوا، ولكنَّا ﴿إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا﴾ أي: قطعًا ﴿مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لفعلنا ذلك بقدرتنا عليهم؛ جزاء ظلمهم وكفرهم، ولكنا نؤخر ذلك عنهم لحلمنا.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ الكون الرحيب، وما يرون فيه من عجائب صنع الله ﴿لَءَايَةً﴾ دالة على قدرة الله على البعث ﴿لِّكُلِّ عَبْدٍ﴾ لله ﴿مُّنِيبٍ﴾ راجع إليه بالتوبة، غير مصر على المعصية، ولا متعصب لها.

ولمَّا ذكر ربنا عز وجل مَن ينيب من عباده إليه، أتبعه بذكر مَن أناب إلى الله بالفعل، وشكره على النعمة، ومن هؤلاء داود عليه السلام، الذي ندمَ ﴿فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ [ص: ٢٤].

كما بيّن سبحانه وتعالى ما آتاه الله على إنابته، فقال عز من قائل:

﴿۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾

نعم، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ﴾ عليه السلام ﴿مِنَّا فَضْلًا ۖ﴾ وهو النبوة والكتاب، **ثم قلنا أولًا:** ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى﴾ رجّعي ﴿مَعَهُۥ﴾ التسبيح، فكان يسمع صوتها وهي تسبح معه، بل يروى أنه كان إذا أصابه تعب وسكت، سبحت الجبال، فيسمع صوتها؛ فينشط بالتسبيح من جديد.

﴿و﴾ **ثانيًا**: نادينا ﴿ٱلطَّيْرَ﴾ أيضًا أن تسبح معه.

﴿و﴾ **ثالثًا**: ﴿أَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ﴾ جعلناه لينًا في يده يشكله كيف يشاء، دون نار يدخل فيها، أو مطرقة يدق بها.

وأمرناه قائلين: ﴿أَنِ ٱعْمَلْ﴾ من هذا الحديد دروعًا ﴿سَٰبِغَٰتٍ﴾ واسعة، تامة ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ أي: اجعلها دقيقة الصنع، مريحة للابسها، حافظة له ﴿و﴾ قلنا لأهله: ﴿ٱعْمَلُوا۟﴾ آل داود معه عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ يتقبله الله منكم.

﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ مراقب لكم ﴿بَصِيرٌ﴾ بكم، وسأجازيكم عليه.

ومَن عمل من أهله عملًا صالحًا، وأناب للهِ أيضًا: ولده سليمان فآتاه الله خيرًا، يقول الحق تبارك وتعالىٰ:

﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾

يعني: ﴿و﴾ أنعمنا علىٰ داود أيضًا، حيث سخرنا ﴿لِسُلَيْمَٰنَ﴾ ولده، ما يلي:

أولًا: ﴿ٱلرِّيحَ﴾ التي كان ﴿غُدُوُّهَا﴾ أي: سيرها في الغداة، وهو النهار، مسيرة شَهْرٍ، وسيرها في الليل و ﴿رَوَاحُهَا﴾ أي: عودتها مقدار شَهْرٍ، والتي كانت تحمله إلىٰ حيث يشاء.

﴿و﴾ **ثانيًا**: ﴿أَسَلْنَا لَهُۥ﴾ **أي**: أذبنا من الذوبان والسيولة ﴿عَيْنَ ٱلْقِطْرِ﴾ وهو النحاس، إذْ جعل الله النحاس يسيل من عين كما يسيل الماء، معجزة لسليمان عليه السلام.

﴿و﴾ **ثالثًا** : سخرنا له الجن، فكان ﴿مِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ مطيعًا له ﴿بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾ بقدره، وتسخيره له.. ﴿و﴾ كان ﴿مَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ له بطاعة سليمان، ويهرب ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهو الحريق.

وكان هؤلاء الجن ﴿يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ﴾ حسبما يأمرهم به سليمان ﴿مِن﴾: ﴿مَّحَٰرِيبَ﴾ أبنية عالية يصعد عليها ﴿وَتَمَٰثِيلَ﴾ ولم يكن ذلك حرامًا في شريعة سليمان عليه السلام ﴿وَجِفَانٍ﴾ أي: آلات يؤكل فيها ﴿كَٱلْجَوَابِ﴾ مثل: الأحواض الكبيرة.

﴿وَقُدُورٍ﴾ أي: آلات يطبخ فيها ﴿رَّاسِيَٰتٍ﴾ لا تنقل من مكانها لعظمها وضخامتها.

ثم قلنا: ﴿ٱعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ﴾ معه بالطاعات ﴿شُكْرًا﴾ على ما أنعم عليكم به في الدنيا والآخرة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ وهم: العاملين بطاعتي، شكراً لنعمتي.

وظل الجن يعملون لسليمان ما يشاء حتىٰ وافاه الأجل واقفًا متكئًا علىٰ عصاه.

وما علمت الجن أنه مات..!! يقول الله تعالىٰ:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

أي: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ﴾ أي: علىٰ سليمان ﴿ٱلْمَوْتَ﴾: مات.

ومكث قائمًا مستندًا علىٰ عصاه، والجن تعمل بين يديه هذه الأعمال الشاقة، ولا تدري أنه مات. وظل الحال علىٰ ذلك فترة من الزمان حتىٰ علموا أنه مات.

ولكن كيف عرفوا أنه مات..؟

يقول سبحانه وتعالىٰ: و ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ﴾ وهي الأَرَضَة التي تأكل الخشب. حيث صارت ﴿تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ﴾ أي: عصاه، وهو واقف متكئ عليها، فلما أكلتها: انهارت العصا، وسقط سليمان عليه السلام.

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ أي: سقط ﴿تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ﴾ أمرين:

الأول: أنه مات.

الثاني: أنهم لا يعلمون الغيب؛ بدليل ﴿أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ﴾ ومكثوا مدة موت سليمان واقفًا ﴿فِى﴾ هذا ﴿ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ لهم.

هذه هي قصة داود وسليمان عليهما السلام، وهي قصة مَن أناب إلىٰ الله بالطاعة، وشكر الله علىٰ نعمه وآلائه.

وإليكم قصة مَن لم يطع الله، ولم يشكر نعمه، ويعترف بآلائه وهي قصة سبأ، وهم قوم كانوا باليمن، يقول اللهُ تعالىٰ عنهم:

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾

نعم، ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ﴾ ومحل إقامتهم ﴿ءَايَةٌ﴾ تدل علىٰ قدرة الله وإحسانه، ووجوب شكره، هذه الآية هي ﴿جَنَّتَانِ﴾ بستانان كبيران، أحدهما ﴿عَن يَمِينٍ﴾ من مساكنهم ﴿و﴾ الثاني عن ﴿شِمَالٍ﴾ من مساكنهم، هذه البساتين مليئة بالخيرات وأنواع الثمار والفواكه الكثيرة.

وقلنا لأهل سبأ علىٰ ألسنة رسلنا إليهم: ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ﴾ ونعمه عليكم.

﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ هذا الرزق، وهذه النعم، واعلموا أن بلدتكم هذه، التي تقيمون فيها ﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ﴾ وربكم الذي يرزقكم ﴿رَبٌّ غَفُورٌ﴾..!! فآمنوا به، واعبدوه، واشكروا له.

ماذا فعلوا..؟

﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾﴾

أي: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن الإيمان، ولم يعبدوا الله تعالىٰ، ولم يشكروه علىٰ هذه النعم التي يعيشون في ظلالها، أتدرون ماذا فعل الله بهم..؟

يقول الله عز وجل: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ بقدرتنا مطرًا غزيرًا، تجمع منه ﴿سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ الذي حطم الجسور، وهدم السدود، وأغرق البساتين، وأتلف الثمار، وضاعت منهم النعم.

﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ﴾ المليئتين بالخيرات ﴿جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ﴾ أي فيهما: ﴿أُكُلٍ﴾ ثمر ﴿خَمْطٍ﴾ بشع مر، ﴿وَأَثْلٍ﴾ نبات لا ثمر له، ولا فائدة منه.

﴿وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ﴾ أي: نبق ﴿قَلِيلٍ﴾ .. وهذا أفضل ما كان عندهم بعد هذا

التبديل، وهكذا تبدل حالهم بعد الراحة شقاءً، وبعد الغنىٰ فقرًا، وبعد النعيم ذلًا وهوانًا.

﴿ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾

يعني ﴿ذَٰلِكَ﴾ كان جزاؤهم، الذي ﴿جَزَيْنَٰهُم﴾ به ﴿بِمَا كَفَرُوا۟﴾ بربهم، وأعرضوا عن طاعته، ورفضوا شكره.

﴿وَهَلْ نُجَٰزِىٓ﴾ بمثل هذا ﴿إِلَّا ٱلْكَفُورَ﴾؟

كان هذا حديث القرآن عن نعم الله الداخلية علىٰ أهل سبأ، والتي لم يشكروا الله عليها؛ فأبدلها لهم كما رأينا، وهناك حديث آخر عن نعم الله الخارجية عليهم، يقول الله عز وجل:

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ ۖ سِيرُوا۟ فِيهَا لَيَالِىَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾﴾

أي: ﴿و﴾ من نعم الله عليهم أننا ﴿جَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ ٱلْقُرَى ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا﴾ وهي قرى الشام ﴿قُرًى ظَٰهِرَةً﴾ واضحة، متواصلة من اليمن إلىٰ الشام ﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا ٱلسَّيْرَ﴾ المريح لهم؛ حيث كانوا يأتنسون بأهل هذه البلاد، ويستريحون فيها خلال سفرهم.

وقلنا لهم: ﴿سِيرُوا۟ فِيهَا﴾ حيث شئتم ﴿لَيَالِىَ وَأَيَّامًا﴾ دون خوف ﴿ءَامِنِينَ﴾ علىٰ أنفسكم، وأمتعتكم.

فهل شكروا الله علىٰ ذلك؟ يقول الله تعالىٰ:

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾﴾

يعني: ﴿فَـ﴾ بطروا النعمة، وطغوا، وسئموا الراحة، وتمنوا طول الأسفار، والكد في المعيشة.. و ﴿قَالُوا۟﴾ يا ليت المسافات بين هذه القرىٰ كانت بعيدة، ثم دعوا ربهم قائلين يا ﴿رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾، وعجل الله لهم إجابة هذه الدعوة بتخريب تلك القرىٰ الظاهرة، العامرة، المتواصلة، التي كانوا يستريحون فيها، ويأنسون لأهلها.

﴿و﴾ بذلك ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ بكفرهم، وعدم شكرهم هذه النعم بل أكثر من هذا يقول ربنا عز وجل: ﴿فَجَعَلۡنَٰهُمۡ أَحَادِيثَ﴾ لمن بعدهم، يتحدث الناس بقصتهم، ويتعجبون من سفاهتهم.

﴿وَمَزَّقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: قبائلهم ﴿كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ يعني: فرقناهم في البلاد، فُرقة لا يلتئمون بعدها أبدًا.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من حال الشاكرين، ووبال الكافرين ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ وعبر ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٖ﴾ على طاعة الله، والبعد عن المعاصي ﴿شَكُورٖ﴾ على نعم الله.

هذه هي قصة أهل سبأ.

﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٠ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا فِي شَكّٖۗ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ ٢١﴾

يعني ﴿وَلَقَدۡ صَدَّقَ عَلَيۡهِمۡ إِبۡلِيسُ ظَنَّهُۥ﴾ أي: حقق ظنه فيهم، وكان ظنه أن يتبعوه إذا أغواهم.. فأغواهم ﴿فَٱتَّبَعُوهُ﴾ أي: أهل سبأ.

﴿إِلَّا فَرِيقٗا مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ أي: قلة من أهل سبأ، وهم المؤمنون فيهم لم يتبعوه، بل آمنوا بالله، وشكروا بالنعم، وأما الغالبية منهم فقد اتبعوه.

﴿وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيۡهِم﴾ حينما اتبعوه ﴿مِّن سُلۡطَٰنٍ﴾ يكرههم به على الكفر.

وما اتبعوه ﴿إِلَّا لِنَعۡلَمَ﴾ لنظهر ﴿مَن يُؤۡمِنُ بِٱلۡأٓخِرَةِ﴾ منهم ﴿مِمَّنۡ هُوَ مِنۡهَا﴾ أي: الآخرة والإيمان بها ﴿فِي شَكّٖ﴾ من وقوعها.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٍ حَفِيظٞ﴾ فليحذر العصاة غضبه سبحانه، وليشكر المؤمنون نعمه.

وهكذا بيّن الله حال الشاكرين، وحال الكافرين، وكان المقصود بهذا البيان وعظ المعاندين لمحمد ﷺ، المستهزئين بما يقول، لذلك يقول ربنا للحبيب ﷺ:

﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ ۚ حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

أي: قُلْ لهم يا محمد: ﴿ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ أنهم آلهة، وعبدتموهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ليكشفوا عنكم الضر، وينفعوكم.

ثم يقول ربنا مبينًا حال هذه الآلهة المزعومة، إنهم أي: هذه الآلهة المزعومة ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ حتىٰ ينفعونكم أو يضرونكم.

﴿و﴾ أيضًا ﴿مَا لَهُمْ فِيهِمَا﴾ أي في السماوات وفي الأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ يعني: من مشاركة لله، لا في الخلق ولا في الملك لهما.

﴿و﴾ ثالثًا ﴿مَا لَهُۥ﴾ سبحانه ﴿مِنْهُم﴾ من هذه الآلهة المزعومة ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ يعينه علىٰ تدبير شؤون الخلق فهم فقراء، ضعفاء، عجزة. فكيف تعبدونهم؟ كما أنهم لا يملكون الشفاعة لكم، ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ من أحد لأحد ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ تعالىٰ أن يشفع، وحال هذا الإذن بالشفاعة يصيب الجميع الفزع الشديد.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ كشف عنها الفزع، ﴿قَالُوا۟﴾ لبعضهم البعض: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ﴾ في الشفاعة؟

﴿قَالُوا۟﴾: يقول ربنا القول ﴿ٱلْحَقَّ﴾ فيها، حيث أذن بها.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلْعَلِىُّ﴾ القاهر فوق خلقه ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم.

ثم يقول رب العزة للنبي ﷺ:

﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِٱلْحَقِّ ۚ وَهُوَ ٱلْفَتَّاحُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِىَ ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِۦ شُرَكَآءَ كَلَّا ۚ بَلْ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ بالمطر، ومن ﴿ٱلْأَرْضِ﴾ بما ينبت من الزرع؟

ثم أمره أن يجيب عنهم، قائلًا له: قُلْ أنت: ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلًا منهم؛ لأنهم قد لا ينطقون بألسنتهم، بالرغم من أن قلوبهم تقر بذلك.

﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ﴾ أي: أحدنا ﴿لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾..

ولذلك فعلىٰ كل واحد منا أن يراجع نفسه، وفي هذا منتهىٰ الأدب في الحوار، ومنتهىٰ الذكاء في الإقناع.

ثم يأمره رب العزة أن يزداد في التواضع أكثر وأكثر، من باب قطع طريق المكابرة والعناد عندهم، إذْ يقول له: ﴿قُل﴾ لهم ﴿لَّا تُسْـَٔلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ إن كنا علىٰ خطأ ﴿وَلَا نُسْـَٔلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ أنتم أي: كل منا مسؤول وحده عن عمله، ولا مسؤولية عليه لعمل الآخر، والفيصل بيننا يوم القيامة، لذلك: ﴿قُلْ﴾ لهم أيضًا ﴿يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا﴾ يوم القيامة، مع جميع الخلائق ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ أي: يحكم ﴿بَيْنَنَا﴾ فيما نحن عليه، وما أنتم عليه، وهو سبحانه يحكم ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ أي: بالعدل، وهو ﴿ٱلْفَتَّاحُ﴾ أي: الحاكم ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ بحقائق الأمور، والصواب فيها.

ثم ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أَرُونِىَ﴾ معبوداتكم ﴿ٱلَّذِينَ أَلْحَقْتُم﴾ أي: ألحقتموهم به، وجعلتموهم ﴿شُرَكَآءَ﴾ لله في العبادة. ﴿كَلَّا﴾ ارتدعوا ﴿بَلْ هُوَ ٱللَّهُ﴾ سبحانه، المستحق وحده للعبادة؛ إذ هو ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في تدبيره لخلقه، فلا يعقل أن يكون له شريك في ملكه.

علىٰ كل حال:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾

يعني ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ للناس كلهم إلَّا ﴿بَشِيرًا﴾ للطائعين المؤمنين بالجنة ﴿وَنَذِيرًا﴾ للعصاة الكافرين بالنار.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ عموم رسالتك، وأنك بشير، وأنك نذير؛ ولذلك يعاندونك ويكذبونك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾﴾

أي: ﴿وَيَقُولُونَ﴾ مستهزئين بالمؤمنين، وبالنبي ﷺ ووعودهم، ﴿مَتَىٰ﴾ يكون ﴿هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ بالعذاب، الذي تخوفوننا به ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في كلامكم عنه؟

أجبهم يا محمد..

﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ تبعثون فيه، وتحاسبون، وتعذبون، وهذا اليوم له موعد محدد ﴿لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أي: لا يستأخر لرغبة أحد، ولا يتقدم لرجاء أحد.

انتظروا ما يحدث لكم، وينزل بكم فيه!!

بعد كل هذا الإقناع والتخويف يقول رب العزة:

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾﴾

يعني ﴿و﴾ بالرغم من وضوح الدلائل على صدق محمد ﷺ، وعلى مجيء اليوم الآخر ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بكل تبجح ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ الذي تتلوه علينا ﴿وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ﴾ مما يخبر عنه من أمور الآخرة، وما فيها من حساب وغيره، ولأن النقاش المألوف مع هؤلاء المعاندين لا يفيد.. فإن القرآن يعرض بعض مشاهدهم في الآخرة، فيقول: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هؤلاء وأمثالهم: ﴿مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ﴾ حساب ﴿رَبِّهِمْ﴾ وهم ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ﴾ يتعاتبون ويتلاومون..

حيث ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ منهم ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ فيهم، بكل غيظ وحقد: ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ الذين منعتمونا، وخدعتمونا ﴿لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾، وكنا مع الفائزين.

وهنا يكون التبري منهم..

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ في الدنيا ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟﴾ أمامهم فيها، وأطاعوهم مع الكفر: ﴿أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ﴾ ومنعناكم ﴿عَنِ ٱلْهُدَىٰ﴾ مع المهتدين، والإيمان باليوم الآخر، والاستعداد له، مع المؤمنين ﴿بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم﴾ به محمد ﷺ، وبلغكم به الدعاة والعلماء.

أبدًا نحن ما منعناكم، وأين كانت عقولكم..؟

﴿بَلْ كُنتُم﴾ بطبعكم ﴿مُّجْرِمِينَ﴾ حيث عرضنا عليكم فقط الكفر فكفرتم، دون إلزام منا لكم ولا إرغام.

فهل يسكت الذين استضعفوا؟ كلا..

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟﴾ وهم الأتباع ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟﴾ ردًا عليهم وتكذيبًا لهم: ﴿بَلْ﴾ أنتم السبب في كفرنا، وفي ضياعنا اليوم؛ حيث كان ﴿مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ﴾ منكم بنا، إغراءً تارة، وتهديدًا أخرىٰ، ﴿إِذْ﴾ كنتم ﴿تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ﴾ نعبدهم معكم.

وهنا.. تنقطع حجة الذين استكبروا فلا يستطيعوا ردًّا، وتتكشف الحقيقة الكاملة والخديعة السابقة للذين استضعفوا، ولا تفيدهم ردودهم.

فيسكتون، ويندمون، يقول الواحد القهار: ﴿وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ﴾ علىٰ كفرهم ﴿لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾.

﴿و﴾ هكذا: ﴿جَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ﴾ القيود ﴿فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾ زيادة على تعذيبهم في النار.

خبروني بربكم: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ﴾ الآن ﴿إِلَّا﴾ الجزاء العادل، بسبب ﴿مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ في الدنيا؟

ثم يقول ربنا عز وجل تسلية للنبي ﷺ:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾﴾

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ﴾ أي: لم نبعث في أهل قرية رسولاً من الرسل يُنذرهم عذابنا ﴿إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾ وهم أغنياؤها وأهل التنعيم فيها ﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ﴾ أي: لا نؤمن به ولا نتبعه.

﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾

أي: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم، وأنه ما كان ليعطيهم هذا في الدنيا، ثم يعذبهم في الآخرة، وهيهات لهم ذلك، ويكون الرد على منطقهم الفاسد هكذا...

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾﴾

يعني ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿إِنَّ رَبِّى﴾ يعطي المال والدنيا لمن يحب ولمن لا يحب، ولذلك ﴿يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي يوسعه ﴿لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيقه على مَن يشاء من عباده، وفق حكمته ومشيئته، وليست وفق محبة الله للعبد أو عدم ذلك.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فيظنون خطأ: أن التوسعة علامة الرضا، وأن التضييق على غير ذلك، ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ هذه ﴿وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ هؤلاء، في ذات الوقت ﴿بِـ﴾ الأشياء ﴿ٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ أي: ليست دلالة على محبتنا لكم ﴿إِلَّا﴾ أن ﴿مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ فهو القريب منا، والمحبوب إلينا، ثم يقول تعالى عن جزاء مَن آمن وعمل صالحًا: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ﴾ أي: تضاعف حسناتهم الواحدة عشرًا، ثم إلى سبعمائة ضعف، وذلك ﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ في الدنيا من الصالحات.

إضافة إلىٰ ذلك: ﴿وَهُمْ فِي ٱلْغُرُفَٰتِ﴾ أي الجنات مقيمون ﴿ءَامِنُونَ﴾ من كل خوف وأذى.

ولمزيد الإنعام علىٰ مَن آمن وعمل صالحًا، يذكر ربنا جزاء أعدائهم، فيقول تبارك وتعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِيٓ﴾ إبطال ﴿ءَايَٰتِنَا﴾ والصد عن سبيل الله، وهم يظنون أنهم ﴿مُعَٰجِزِينَ﴾ لنا، ولن نعذبهم ﴿أُوْلَٰٓئِكَ فِي ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ لا يفرون منه، ولا يغيبون عنه.

مرة أخرىٰ، بخصوص الأموال والأولاد..

﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

يعني ﴿قُلْ﴾ لهم، وأكد عليهم: أن يفهموا قضية الرزق فهمًا صحيحًا، حيث ﴿إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ﴾ لحكمة يدركها هو، حيث يجعل هذا غنيًّا وهذا فقيرًا.. إلخ. لذلك آمنوا، وأنفقوا، فهو خير لكم.

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ كثير أو قليل، وما دام في سبيل الله: ﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ﴾ ويزيده لكم. ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾.

وبعد أن فند الله تعالىٰ لهم شبهة افتتانهم بسعة الرزق، وغرورهم بكثرة الأموال والأولاد، يفند لهم ويبطل زعمًا آخر من مزاعمهم، فيقول عز من قائل:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم ۖ بَلْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ ۖ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾﴾

أي: ﴿وَيَوْمَ﴾ القيامة ﴿يَحْشُرُهُمْ﴾ المولىٰ سبحانه وتعالىٰ ﴿جَمِيعًا﴾ الذين استكبروا، والذين استضعفوا، ﴿ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ موبخًا للكافرين ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ الكافرون ﴿إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ﴾ أي: أأنتم أمرتموهم بعبادتكم؟

فتجيب الملائكة ربها: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ نحن عبيدك، نبرأ إليك مما قالوه، ثم تقول: ﴿بَل﴾ هم ﴿كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ﴾ أي: الشياطين، وهم الذين أضلوهم، وزينوا لهم عبادة الهوىٰ والأصنام، بل ﴿أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ متبعون لهم، وخاضعون.

يقول ربنا وهو الحكم العدل:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

نعم، في يوم القيامة لا يملك أحد لأحد شيئًا، ويقول ربنا سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ وكفروا: ﴿ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ فهذه هي النار ﴿ٱلَّتِى كُنتُم بِهَا﴾ في الدنيا ﴿تُكَذِّبُونَ﴾ الرسل.

هؤلاء هم الكفار، وهذا بيان بعض أحوالهم التي يصيرون إليها، وينتهون عندها؛ نحن نحذرهم الآن منها..

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾﴾

﴿و﴾ مع ذلك فهم ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا﴾ من القرآن، الدالة علىٰ وحدانية الله، وقدرته، واليوم الآخر، وهي آيات بَيِّناتٌ واضحات، لا لبس فيها، ولا غموض، كان موقفهم هكذا:

أولًا: شككوا في دعوته ﴿قَالُوا۟﴾ للناس ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ﴾ ويمنعكم ﴿عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ﴾ فلا تطيعوه.

ثانيًا: كذبوه وكذَّبوا ما جاء به ﴿وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى ۚ﴾ كذب لا أصل له، اختلقه من نفسه.

ثالثًا: وصفوه بالسحر ليصرفوا الناس عنه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ﴾ القرآن ﴿لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ به ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: سحر واضح ظاهر.

ما الذي دفعهم إلىٰ هذا العناد، وإلىٰ هذه الأقوال؟ خاصة:

﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا ۖ وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾﴾

يعني لم يُصرُّون علىٰ الشرك، وتقليد الآباء، ورفض الحق، وتكذيبه علىٰ هذا النحو!! مع أننا ﴿وَمَآ ءَاتَيْنَـٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ قبل القرآن، فتكون حجة ولو واهية لهم في موقفهم المعاند هذا!!

﴿و﴾ كذلك ﴿مَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ﴾ يا محمد ﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾ فيكون حجة ولو واهية لهم في موقفهم المعاند هذا!!

علىٰ أية حال عليهم أن يتعظوا بمن سبقهم من المكذبين.

﴿وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى ۖ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾﴾

أي: ﴿و﴾ قد ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من الأمم ﴿وَمَا بَلَغُوا۟﴾ أي: ما بلغ أهل مكة ﴿مِعْشَارَ﴾ عشر ﴿مَآ ءَاتَيْنَـٰهُمْ﴾ الذين من قبلهم، من طول الأعمار، وكثرة الأموال والأولاد.. ﴿فَكَذَّبُوا۟﴾ أي: الأمم السابقة؛ فأهلكناهم.

﴿فـ﴾ انظر ﴿كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: كيف كان عقابي لهم، ونكالي بهم، فاتعظ.

هذا، وبعد أن ذكرت آيات السور الدلائل الكثيرة علىٰ وحدانية الله تعالىٰ وإثبات رسالة النبي ﷺ، وحتمية اليوم الآخر، تؤكد عليها هنا في صورة موجزة مرة أخرىٰ، حيث يقول الله تعالىٰ للنبي ﷺ:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ ۚ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾﴾

يعني ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم﴾ بصفة ﴿وَاحِدَةٍ﴾ تتصفون بها.

وإذا فعلتموها وصلتم إلىٰ الحق، وهي:

أولًا: ﴿أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ﴾ أي: لوجهه خالصًا، لا لعصبية، ولا لقومية، ولا لغيره. وذلك طلبًا لمعرفة الحق فقط، علىٰ أن تكونوا ﴿مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ﴾.

وفي هذا تأكيد للوحدانية، حيث يقومون لله وحده، لا لغيره.

ثانيًا: ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟﴾ في أمر محمد، فتعلموا أنه ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾ أي: ليس به جنون كما تزعمون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم﴾ وفي هذا تأكيد لرسالة النبي ﷺ؛ حيث يعلمون أنه ليس بمجنون، بل هو نذير.

ثالثًا: تتأكدون أنه نذير لكم ﴿بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ في يوم القيامة، إن بقيتم علىٰ كفركم، وفي هذا تأكيد علىٰ الإيمان باليوم الآخر.

ولكي لا يكون النبي محل تهمة عندهم، ولا صاحب مصلحة منهم، يقول له ربه تبارك وتعالىٰ:

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾﴾

أي: ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ﴾ علىٰ إنذاري لكم، ودعوتي إياكم للإيمان.. وإن كنت قد سألتكم شيئًا ﴿فَهُوَ لَكُمْ ۖ﴾ فخذوه، وأنتم تعلمون جيدًا أني ما سألتكم أجرًا أبدًا، حتىٰ أكون صاحب غرض، أو طالب منفعة منكم، ولكن النفع في دعوتي إياكم هو لكم أنتم، ولكم وحدكم.

وأما أنا ﴿إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ أطلب منه القبول، وأطلب منه الثواب، ومنه فقط لا من غيره.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ يعلم صدقي وإخلاصي.

يا محمد: ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إِنَّ رَبِّى يَقْذِفُ﴾ يدفع ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ الذي ينزله علىٰ أنبيائه، ومنه ما نزل عليَّ، يدفع الباطلَ بصفة عامة، وما أنتم عليه بصفة خاصة، فهو سبحانه ﴿عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ فلا يعلم الغيب إلَّا هو.

و﴿قُلْ﴾ لهم كذلك: ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ بالإسلام وذهب الباطل وهلك، ﴿وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ فلا حياة للباطل ولا بقاء، والحق هو المنتصر، وهو الباقي.

ثم يبين ربنا عز وجل علىٰ لسان نبيه، أن الهداية فيما جاء به الوحي، فيقول تعالى:

﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِى ۖ وَإِنِ ٱهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِىٓ إِلَىَّ رَبِّىٓ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

﴿قُلْ﴾ لهم: ما دام الحق أصبح واضحًا؛ فإنه من ضل ﴿فَإِنَّمَآ﴾ يَضِلُّ ﴿عَلَىٰ﴾ نفسه حتىٰ، ولو كنت أنا، ومن اهتدىٰ فبهدي الله سبحانه وتعالىٰ، فابحثوا عن هديه، وآمنوا به ﴿إِنَّهُۥ﴾ عز وجل ﴿سَمِيعٌ﴾ لأقوال عباده، وما أقوله لكم ﴿قَرِيبٌ﴾ مني ومنكم ويجازيني ويجازيكم، كل منا بما يستحق.

ثم تعرض السورة علينا مشهدًا من مشاهد بعض الكافرين في يوم القيامة، وهم الذين كانوا يقولون في الدنيا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ [سبأ: ٣١].

حيث يقول الحق سبحانه:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾﴾

يعني ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ هؤلاء الكافرين يوم البعث ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ من قبورهم، لرأيت أمرًا عجيبًا!!

حيث يقول ربنا ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ ولا مهرب لهم منا ﴿وَأُخِذُوا۟﴾ قسرًا ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ وهو القبور ﴿وَقَالُوٓا۟﴾ في هذه اللحظة ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: بالله، أو الرسول، أو القرآن، أو اليوم الآخر، وتبنا إلىٰ الله مما كنا فيه. ولكن هيهات!!

﴿وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ﴾ أي: التناول لهذه التوبة ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عليهم، وهو الدنيا؛ حيث كانت متاحة لهم، ﴿و﴾ لكنهم ﴿قَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ﴾ أي: بالله، أو

الرسول، أو القرآن، أو اليوم الآخر ﴿مِن قَبْلُ﴾ حينما كانوا في الدنيا.

﴿و﴾ العجيب في أمرهم، أنهم كانوا ﴿يَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ جهلًا؛ حيث ينكرون البعث والحساب ﴿مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ﴾ عن الصدق؛ الذي عاينوه الآن، وفي هذه اللحظة يتمنون الرجوع إلىٰ الدنيا، ويشتهون الإيمان، ليتخلصوا به من هذا العذاب المهين المقيم.

ولكن..!! يقول ربنا عز وجل:

﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾﴾

يعني ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ من الإيمان، أو الرجوع إلىٰ الدنيا لعمل الصالحات، وأصبح من المستحيل عليهم الوصول إلىٰ هذه الأماني.

وذلك: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم﴾ أشباههم في الكفر ﴿مِن قَبْلُ﴾ حيث تمنوا ذلك لمَّا عاينوا العذاب!! وهكذا استحقوا العذاب، ويخلدون فيه، حيث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ﴾ من الحق الذي جاء به محمد ﷺ ﴿مُّرِيبٍ﴾ من الريبة، وهذا من باب التأكيد، كقولهم: عجيبٌ عجيب.

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة فَاطِر

هذه السورة مكية، وهي تسمىٰ كذلك بسورة الملائكة، وهي تبدأ بقوله تعالىٰ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾﴾

هذه السورة: هي خاتمة السور الخمس التي بدأت بالحمد لله، وهي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وقد حمد الله تعالىٰ نفسه تعليمًا وتعظيمًا، وقد وصف الله نفسه بعدة صفات:

الأولىٰ: ﴿فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ **أي** خالقهما علىٰ غير مثال سابق.

الثانية: ﴿جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا﴾ بينه وبين أنبيائه ﴿أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ﴾ متعددة للملك الواحد ﴿مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ﴾ وأكثر من ذلك.

الثالثة: المشيئة المطلقة ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أنواعًا، وأوصافًا، الخ ﴿مَا يَشَآءُ﴾ سبحانه وتعالىٰ.

الرابعة: القدرة التامة ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: قادر.

الصفة الخامسة:

﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢﴾﴾

أي: لا راد لقضائه ولا معقب لحكمه، لا مانع لما يعطي، ولا معطي لما يمنع.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ القوي الغالب ﴿ٱلْحَكِيمُ﴾ في كل ما يقدر، ويحكم به.

وما دام ربنا كذلك، فكل الفضل منه، وكل النعم منه، ولذلك ينبغي أن يكون التوجه له، والإخلاص له، والتعبد له.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٣﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟﴾ بألسنتكم وقلوبكم ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ وهي كثيرة لا تحصى ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] واشكروه سبحانه عليها.

وإلَّا تفعلوا، فخبروني ﴿هَلْ مِنْ خَٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ يستحق الذكر والشكر..؟

كلا.. ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ﴾ صاحب هذه النعم، وخالق السموات والأرض، والذي يرزق عباده، والذي يستحق الشكر والعبادة وحده.

بعد كل هذا..!! ﴿فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ بأي وجه تصرفون عن الإيمان به، وتوحيده، وشكره، وتكذبون الرسل..؟

على أية حال:

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤﴾﴾

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ بعد هذا كله، فلا تهتم ولا تحزن، وذلك لسببين:

الأول: لست وحدك في ذلك ﴿فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ۚ﴾ فاصبر كما صبروا.

الثاني: سنجازيهم على كفرهم ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ وذلك في يوم الجزاء.

وبعد أن ذكَّر ربنا خلقه بنعمه، وطالبهم بالشكر عليها، يحذرهم من الغرور بالدنيا والشيطان، ويطالبهم بالعمل الصالح، إذ يقول جل وعلا:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾

يعني ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث والحساب ﴿حَقٌّ﴾ فآمنوا به.

وانتبهوا جيدًا ﴿فَلَا﴾ ينبغي أن ﴿تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ ببهجتها وزخرفها ومتاعها، عن الاستعداد له.

﴿وَلَا﴾ ينبغي أن ﴿يَغُرَّنَّكُم﴾ كذلك ﴿بِٱللَّهِ﴾ في حلمه وإمهاله ﴿ٱلْغَرُورُ﴾ وهو الشيطان عن المسارعة في الخير.

ثم يبين ربنا عداوة هذا الشيطان، فيقول عز وجل:

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ إِنَّمَا يَدْعُوا۟ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُوا۟ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾﴾

أي: هو عدو لكم، عداوته قديمة، وعداوته شديدة ﴿فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ۚ﴾ لكم في عقيدتكم، وفي عبادتكم، وفي جميع أموركم، وهو لا يريد لكم ولا منكم، إلا أن تكونوا معه ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ وهي جهنم.

علىٰ كل حال، مَن أطاعه هلك، ومَن ابتعد عنه وعصاه نجا.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بالله، وأطاعوا الشيطان ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ بالله، وتغلبوا علىٰ وسوسة الشيطان ﴿وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولم يغتروا بالدنيا: ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لما سبق من ذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ علىٰ ما فعلوه.

الذين كفروا زين لهم الشيطان سوء أعمالهم، فرأوها حسنة، وهذا خطر كبير.

يقول الحق سبحانه:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

يعني ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ﴾ من الشيطان ﴿سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ فخدع بذلك ﴿فَرَءَاهُ حَسَنًا﴾ وأصر عليه.. ماذا تملك له؟

هذا أضله الله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ أي: الكل بمشيئة الله.

لذلك ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ﴾ ولا تأسف على كفرهم.

حيث ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ وفي هذا وعيدٌ لهم بالعقاب.

ويعود السياق في الآيات الكريمة مرة أخرى إلى قضية البعث، التي حذر من نسيانها وعدم الاستعداد لها في قوله السابق:

﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥].

وذلك ليدلل بألوان من قدرته عز وجل على هذه القضية، وهي قضية البعث، فيقول الله تعالى:

﴿وَٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ﴿٩﴾﴾

أي: كما أننا بقدرتنا نرسل ﴿ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ محملًا بالمطر ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ بقدرتنا، وأنزلناه ماءً ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾ بلا ماء ﴿فَأَحْيَيْنَا بِهِ﴾ أي: بهذا الماء ﴿ٱلْأَرْضَ﴾ حيث أنبتت بعد موتها.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ نحن قادرون على الإعادة و ﴿ٱلنُّشُورُ﴾ وبعث العباد للحساب والجزاء.

يا أيها الناس آمنوا بالله، ولا تغتروا بمتاع الدنيا، ولا بالشيطان، حتى وإن أردتم العزة فاعلموا أن:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾

نعم، مَن كان يحب أن يكون عزيزًا في الدنيا، فليلزم طاعة الله تعالى؛ لينال ما يريد ﴿فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ﴾ أي: العزة الكاملة، والسعادة الشاملة.

ولينتبه إلىٰ أن ما يُطلب به العزة ليس متاع الدنيا، ولا غرور الشيطان، بل الإيمان، والعمل الصالح، حيث إنه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ عمومًا ﴿وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ الله إليه، ويتقبله من صاحبه ﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ ويسلكون الطرق البعيدة عن مرضاة الله؛ طلبًا لهذه العزة: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ في الآخرة ﴿و﴾ فوق ذلك ﴿مَكْرُ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: وحيلهم لنوال هذه العزة ﴿هُوَ يَبُورُ﴾ يفسد، ولا يوصل إلىٰ عزة، ولا إلىٰ غيرها.

ثم عاد إلىٰ الاستدلال بآثار القدرة علىٰ وحدانية الله تعالىٰ، وإمكانية البعث، إذ يقول عز من قائل:

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَٰجًا ۚ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾﴾

نعم، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ كله: ﴿عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي: سهلٌ هين.

وبعث الخلق أيضًا بعد موتهم لحسابهم أمر يسير فآمنوا بالله، ووجوده، وآمنوا بالبعث واستعدوا له إن كنتم عقلاء..!!

ومن آثار قدرته الدالة علىٰ وحدانيته أنه:

﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾﴾

يعني: لا يستوي الماء العذاب والماء المالح، ومع ذلك فإنه ﴿مِّن كُلٍّ﴾ منهما:

أولًا: ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ وهو السمك. وهذه آية من آيات الله.

ثانيًا: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ﴾ من كل منهما ﴿حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ، وخلافه وهذه آية من آيات الله.

ثالثًا: ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ﴾ أي: السفن ﴿فِيهِ﴾ أي: في كل منهما ﴿مَوَاخِرَ﴾ تجرى في الماء ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾ دون أن تسقط في الماء.

وهذه آية من آيات الله.

﴿و﴾ كان كل ذلك ﴿لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ الله؛ بإيمانكم به، واتباع رسله، والاستعداد ليوم لقائه.

ومن آثار قدرته كذلك الدالة علىٰ وحدانيته أنه:

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾﴾

أي: ﴿يُولِجُ﴾ يدخل ﴿ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ﴾ بقدرته.. وهذه آية.

﴿وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ بقدرته.. وهذه آية.

﴿و﴾ كذلك ﴿سَخَّرَ﴾ لصالح الإنسان ﴿ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ محدد، وهو يوم القيامة.. وهذه آية.

الذي صنع هذه الآيات كلها: إلٰه قادر.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾ هو ﴿ٱللَّهُ رَبُّكُمْ﴾ الذي ﴿لَهُ ٱلْمُلْكُ﴾ كله، وله الأمر كله سبحانه وتعالىٰ ﴿و﴾ أما ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ وتعبدون ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ من آلهة أخرىٰ، فإنهم ﴿مَا يَمْلِكُونَ﴾ شيئًا؛ لا من السمٰوات ولا من الأرض، ولا مما بينهما، ولو كان شيئًا ﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾ وهو القشرة الرقيقة الملتفة علىٰ النواة، وإذا كانوا لا يملكون فهم لا يتصرفون، ولا يستطيعون شيئًا، فكيف إذًا تعبدونهم..؟

جربوا ونادوهم، واطلبوا منهم شيئًا!! إنكم:

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

أي: هم لا يسمعون شيئًا، ولا يعقلون شيئًا إنهم أصنام.

﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ﴾ أبدًا.

﴿وَلَوْ﴾ افترضنا أنهم سمعوا ما فهموا، وما ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ بشيء مما تطلبون.

﴿و﴾ أكثر من هذا: ﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ لو نطقوا ﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ لهم.

نحن نعلمكم بذلك الآن، وننبؤكم به؛ لتؤمنوا ولتستعدوا للقاء الله عز وجل.

﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ بالأمر كله، وهو الله تعالىٰ.

لمَّا طالت دعوة النبي ﷺ للكفار أن يؤمنوا، وألحَّ عليهم في ذلك، وبالغوا في إصرارهم علىٰ الكفر، وتمادوا في عنادهم قالوا ما يفعل محمد ذلك؛ إلا لأن ربه يحتاج إلىٰ عبادتنا، لذلك رد الله عليهم فهمهم الخاطئ، وقولهم الفاحش هذا، بقوله عز وجل:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ المحتاجون ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ في كل شيء.

﴿وَٱللَّهُ﴾ سبحانه وحده ﴿هُوَ ٱلْغَنِىُّ﴾ المنفرد بالغنىٰ عن كل شيء، وهو ﴿ٱلْحَمِيدُ﴾ في جميع ما يفعله، ويقوله، ويقدره، ويشرعه.

وهو عز وجل له المشيئة الكاملة المطلقة ﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ﴾ كلكم أيها الناس إلىٰ العدم ﴿وَيَأْتِ﴾ بقدرته ﴿بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ فعلاً، ولا معقب لحكمه، ولا راد لقضائه.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ الإفناء للخلق، والإنشاء لغيرهم ﴿عَلَى﴾ قدرة الله ومشيئته ﴿بِعَزِيزٍ﴾ أي: بممتنع، أو عسير..

وبما أن الله غير فقير إلىٰ عبادتكم، فتفكروا واعلموا أنه لن يحمل أحد عنكم وزركم، وعنوبة عصيانكم.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۗ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾

نعم، الله عز وجل عادل، حيث ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ نفس ﴿وَازِرَةٌ﴾ آثمة ﴿وِزْرَ﴾ ذنب نفس ﴿أُخْرَىٰ﴾ إذ كل نفس بما كسبت رهينة.

﴿و﴾ كذلك ﴿إِن تَدْعُ﴾ وتطلب نفس ﴿مُثْقَلَةٌ﴾ بالأوزار، نفسًا أخرىٰ ﴿إِلَىٰ﴾ أن تحمل عنها ﴿حِمْلِهَا﴾ لا تستجيب لها، ويظل وزرها كما هو ﴿لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ حتىٰ ﴿وَلَوْ كَانَ﴾ المدعو ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ كالأب أو الأخ، أو الولد، أو الأم، أو البنت، أو غير ذلك، وما دام الأمر كذلك فدعهم لا يتعظون، وعليك بمن هم أهل للموعظة، فأنذرهم..

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ﴾ أصلحوا باطنهم وصاروا ﴿يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ﴾ وأصلحوا ظاهرهم بالعبادة ﴿وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ﴾ أي: أدوا الصلاة على الوجه الأكمل.

واعلم أنه كما أن الوزر علىٰ صاحبه، فالحسنة لصاحبها.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ بفعل الطاعات، وترك المعاصي: ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ حيث إن ثواب صلاحه وطهارته يعود إليه.

﴿وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ الذي يلقىٰ فيه كل إنسان جزاء ما قدم.

وبعد أن اتضح مَن يستفيد بإنذار الرسول ومن لا يستفيد، تأتي بعض المقارنات بينهما؛ عسىٰ أن يفيق المعاندون، يقول الله تعالىٰ:

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ ۖ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾﴾

أي: لا تستوي هذه الأضداد مع بعضها البعض، وكذلك لا يستوي الكافر مع المؤمن أبدًا.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُسْمِعُ﴾ الحق ويهدى إليه ﴿مَن يَشَآءُ﴾ من عباده، ولم يرد أن يسمع هؤلاء سمع هداية، فهم كالموتىٰ في القبور.

﴿وَمَآ أَنتَ﴾ يا محمد ﴿بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ فلا تبتئس من أجلهم، ولا تحزن لعدم استجابتهم؛ فليس عليك هداهم.

﴿إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلزُّبُرِ وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

نعم، ما ﴿أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ لهم، عليك البلاغ فقط، وعلىٰ الله الهداية، ومنه الإضلال.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ﴾ وهو دلائل الهداية ﴿بَشِيرًا﴾ بمن آمن ﴿وَنَذِيرًا﴾ لمن كفر وعاند.

﴿و﴾ لست وحدك فما ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾ قبلك ﴿إِلَّا خَلَا﴾ سلف ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ لهم.

﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ﴾ في هذا الحق، ويعاندوا دعوتك، فلست أيضًا وحدك.

﴿فَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ رسلهم؛ حيث ﴿جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم﴾ هؤلاء ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ المعجزات ﴿وَبِٱلزُّبُرِ﴾ كصحف إبراهيم ﴿وَبِٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ وهو التوراة والإنجيل، فكفروا دون علة تمنعهم من الإيمان، أو حجة يتمسكون بها.

ولهذا، ﴿أَخَذْتُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ هؤلاء بعقابي لهم، ونكالي بهم، ﴿فَـ﴾ تأمل ﴿كَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: نكيري بهم وعقابي لهم!! لذلك فاصبر علىٰ تكذيب قومك، فإن عذابي ينتظرهم.

هذا، وبعد أن لفت الله النظر إلىٰ ما يؤدي إلىٰ الخشية منه سبحانه، من خلال ما فعل بالمكذبين، يلفت النظر ـ كذلك ـ إلىٰ مظاهر قدرته في هذا الكون، ليؤدي ذلك إلىٰ الخشية منه سبحانه، من خلال التعريف بعظمته، فيقول جل جلاله:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾﴾

يعني ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم أيها المخاطب ﴿أَنَّ ٱللَّهَ﴾ بقدرته فعل هذه الأشياء، التي يدلك عليها لتؤمن به، وهي:

أولًا: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: السحاب ﴿مَآءً﴾ وذلك بقدرته تعالىٰ ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ﴾ عديدة ﴿مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ وأنواعها، وطعومها.

ثانيًا: ﴿و﴾ خلق ﴿مِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ﴾ أي: طرق، وشرائح ﴿بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا﴾ كذلك ﴿و﴾ منها ﴿غَرَابِيبُ سُودٌ﴾ أي: ذات ألوان قاتمة سوداء.

ثالثًا: ﴿و﴾ خلق ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ﴾ وأحجامه، وأشكاله.

كل ذلك: دلائل علىٰ قدرة الله وعظمته، وكل ذلك داع إلىٰ حسن عبادة الله، وخشيته.

ولا يدرك ذلك إلَّا العلماء، حقًّا ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ حق الخشية ﴿مِنْ عِبَادِهِ﴾ كلهم ﴿ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ الذين يدركون ذلك، ويعرفون عظمة الله تعالىٰ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ﴾ يعاقب العصاة والمعاندين ﴿غَفُورٌ﴾ للطائعين، المصدقين، الخاشعين.

ولمَّا بين ربنا عز وجل: العلماء بالله، وخشيتهم له ذكر العالمين بكتاب الله، العاملين به، فقال جل وعلا:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾

يلاحظ ابتداءً أن قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ﴾ [فاطر: ٢٨] إشارة إلىٰ عمل القلب.

وأن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ إشارة إلىٰ عمل اللسان.

وأن قوله: ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾ إشارة إلىٰ عمل الجوارح.

ومَن امتلك هذه الثلاثة: فقد سلك الطريق الحق لخشية الله، وتعظيمه.

ومعنىٰ الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ وهو القرآن، ويداومون علىٰ ذلك ﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وحافظوا عليها ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ وفي كل حال.

وهم بذلك ﴿يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ﴾ لن تهلك، وتضيع، ويضيع نفعها.

هؤلاء: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ﴾ الله ﴿أُجُورَهُمْ﴾ ثواب أعمالهم.

﴿و﴾ كذلك ﴿يَزِيدَهُم﴾ فوق أجورهم، ثوابًا ﴿مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ لا يخطر لهم علىٰ بال، حقًّا ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿غَفُورٌ﴾ لذنوبهم ﴿شَكُورٌ﴾ لطاعتهم.

ولمَّا بين ربنا وحدانيته سبحانه، ودلل عليها بالدلائل العديدة من الأنفس والآفاق.

ذكر رسالة محمد ﷺ، فقال عز وجل:

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ هُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾﴾

﴿وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: القرآن ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ من ربك ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أي: لما سبقه من الكتب: يشهد لها أنها من عند الله، وذلك بالطبع قبل تحريفها، كما تشهد هي له، بالتنويه عليه، وأنه منزل من رب العالمين.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِعِبَادِهِۦ لَخَبِيرٌۢ بَصِيرٌ﴾ أي: عالم بالبواطن والظواهر.

ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ عن القرآن الكريم:

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾﴾

المعنى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ هذا ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ الذي أوحيناه إليك، وهو القرآن، لهؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا﴾ واخترناهم ﴿مِنْ عِبَادِنَا﴾ في هذه الأمة، وقد صنف هؤلاء الذين أورثهم كتابه على النحو التالي:

الصنف الأول: الظالم لنفسه ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ وهو: المفرط في فعل بعض الواجبات، المرتكب لبعض المحرمات.

الصنف الثاني: المقتصد ﴿وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ وهو: الذي خلط عملًا صالحًا وآخر سيئًا.

الصنف الثالث: السابق بالخيرات ﴿وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ وهو: الفاعل للواجبات والمستحبات، التارك للمحرمات والمكروهات، وبعض المباحات، الذي يضم إلى العمل، التعليم والإرشاد إلى العمل.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التوريث للكتاب: ﴿هُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْكَبِيرُ﴾ من الله تعالى.

هؤلاء الأصناف الثلاثة، لهم:

﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا۟ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ ۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٥﴾﴾

المعنى: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾ أي: إقامة ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ أي: المؤمنون بأصنافهم كلها.

فالظالمون لأنفسهم: يمحصون، ثم يدخلون.

والمقتصدون: يحاسبون حسابًا يسيرًا، ثم يدخلون.

والسابقون بالخيرات: يدخلون بغير حساب.

ثم ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ﴾ هذا حليهم وزينتهم..!!

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ ينعمون به في الجنة، بعد أن امتنعوا عنه طاعة لربهم في الدنيا.

﴿وَقَالُوا﴾ بعد دخولهم: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ رب العالمين.

﴿ٱلَّذِىٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ من هموم الدنيا والآخرة ﴿إِنَّ رَبَّنَا﴾ عز وجل ﴿لَغَفُورٌ﴾ للسيئات وإن كثرت ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات وإن قلَّت.

﴿ٱلَّذِىٓ أَحَلَّنَا﴾ كذلك ﴿دَارَ ٱلْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِۦ﴾ لا من أعمالنا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ تعب ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ إعياء من كثرة التعب.

هذا حال السعداء، وأما الأشقياء، فيقول عنهم ربنا تبارك وتعالىٰ:

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا۟ وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ ۚ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ ۖ فَذُوقُوا۟ فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾﴾

أي: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ﴾ يدخلونها.

﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فيها بموت ثان ﴿فَيَمُوتُوا۟﴾ فيستريحون.

﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم﴾ وهم فيها ﴿مِّنْ عَذَابِهَا﴾ فينالهم بعض الراحة.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِى﴾ بهذا الجزاء: ﴿كُلَّ كَفُورٍ﴾ كذب بالحق.

﴿وَهُمْ﴾ في وضعهم هذا: ﴿يَصْطَرِخُونَ﴾ يصرخون بشدة ﴿فِيهَا﴾..!!

يقولون: ﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ من النار، وأعدنا إلىٰ الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ فيها عملًا ﴿صَٰلِحًا﴾ يرضيك عنا ﴿غَيْرَ ٱلَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ﴾.

فيكون الجواب عليهم: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ عمرًا، بمقدار ﴿مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن﴾ أحب أن يتذكر ويتعظ..!!؟

﴿و﴾ بالفعل ﴿جَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ﴾ يذكر ويعظكم، فلم تقبلوا تذكيره، ولم تعملوا بنصحه ووعظه..!!؟

﴿فَذُوقُوا۟﴾ العذاب..!!

﴿فَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ يعينهم ويبعد عنهم العذاب.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ۖ وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

يعني ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ وما فيهما، وما بينهما.

حيث ﴿إِنَّهُۥ﴾ سبحانه ﴿عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ وما تكنه وتنطوي عليه، وسوف يجازي أصحابها بما يستحقون.

نعم، ﴿هُوَ﴾ سبحانه ﴿ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ﴾ يا مَن تقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحًا غير الذي كنا نعمل ﴿خَلَـٰٓئِفَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ومكنكم فيها قبل ذلك، فكفرتم.

﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ﴾ بالطبع وبال كُفْرِهِ.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلْكَـٰفِرِينَ كُفْرُهُمْ﴾ عند ربهم ﴿إِلَّا خَسَارًا﴾.

ثم يقرر الله التوحيد، ويبطل الشرك بقوله عز وجل:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۚ أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ ۚ بَلْ إِن يَعِدُ ٱلظَّـٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾﴾

يعني ﴿قُلْ﴾ لهم ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني عن أحوال شُرَكَائِكُمْ وآلهتكم ﴿ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ ثم ﴿أَرُونِى﴾ مظاهر قدرتهم..

أولًا: ﴿مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؟ فيستحقون العبادة، فتعبدونهم..!!

ثانيًا: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ﴾ مع الله ﴿فِى﴾ خلق ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؟ فيستحقون العبادة، فتعبدونهم..!!

ثالثًا: ﴿أَمْ ءَاتَيْنَـٰهُمْ كِتَـٰبًا﴾ من عند الله يثبت شركتهم لله ﴿فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ﴾ وبرهان يشهد لهم بذلك؟ فيستحقون العبادة، فتعبدونهم..!!

لا هذا، ولا ذاك، ولا ذاك.

﴿بَل إِن يَعِدُ ٱلظَّٰلِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا﴾ بأهوائهم وآرائهم ﴿إِلَّا غُرُورًا﴾ وباطلًا؛ فهم بذلك في ضلال حينما يعبدونهم..!!

ولمَّا بيّن المولىٰ القدير أنه لا خلق للأصنام، ولا قدرة لها علىٰ ذلك، بدليل أن الله عز وجل هو القدير وحده، فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا ۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

يعني: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ﴾ سبحانه ﴿يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ بقدرته، ويمنعهما ﴿أَن تَزُولَا ۚ﴾ وتتحركا من مكانهما.

﴿وَلَئِن﴾ افترضنا أنهما ﴿زَالَتَآ﴾ من مكانهما هذا، ما ﴿أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ﴾ غيره.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ يكفر عباده ويعصونه، وهو يحلم بهم، فلا يعاجلهم بالعقوبة، أو إسقاط السماء عليهم، وينتظر توبتهم؛ ليغفر لهم.

وبهذا: بين الله إنكارهم لوحدانية الله عز وجل وقدرته، كما كذبوا الرسول ﷺ وأنكروا رسالته، وبالغوا في هذا الإنكار، يقول عز من قائل:

﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾﴾

يعني: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ﴾ مؤكدين أيمانَهم هذه قائلين: ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ من الله ليؤمنن به، ويتبعونه، و ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ﴾ المستقيمة.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ﴾ محمدًا ﷺ، وهو ﴿نَذِيرٌ﴾ لهم ﴿مَّا زَادَهُمْ﴾ مجيئه ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ وتباعداً عن الحق، وعنادًا له.

وما كان هذا الموقف منهم إلَّا:

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾

أي: عاندوا محمدًا، وكذبوا رسالته، ونفروا منه، وابتعدوا عنه.

﴿ٱسْتِكْبَارًا﴾ منهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ عن اتباع آيات الله.

﴿وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ﴾ كذلك، أي: رغبة المكر السيء بالناس في منعهم وصدهم عن هذه الدعوة، واتباع صاحبها، فهل يظنون أنهم ناجون من أخطار ما يفعلون..؟

كلا ﴿وَلَا يَحِيقُ﴾ وينزل ضرر ﴿ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ وأصحابه، وسينزل بهم لا محالة..!!

ألآ يؤمنون، ويكفون عن مكرهم هذا، فهو أفضل لهم؟ ماذا ينتظرون؟ ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ الذين كان يأتيهم الرسول، فيكذبونه، فيهلكهم الله؟ علىٰ أية حال: سنتنا لا تتغير ولا تتبدل، وسنهلكهم.

﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ بغيرها..!!

﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ عنهم، دون أن تهلكهم.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴿٤٥﴾﴾

يعني ﴿أ﴾ قعدوا ﴿وَلَمْ يَسِيرُوا۟﴾ خلال سفرياتهم وتحركاتهم ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لمصالحهم ﴿فَيَنظُرُوا۟﴾ إلىٰ آثار السابقين، فيعرفوا ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ لمَّا كذبوا؟ خاصة: ﴿و﴾ أنهم ﴿كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ وأطول أعمارًا، وأكثر أموالًا، ومع ذلك أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر.

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ﴾ ويمنعه عن عقابهم، وإهلاكهم ﴿مِن شَىْءٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ لذلك هو سبحانه يمهلهم ولا يهملهم.

﴿إِنَّهُۥ﴾ عز وجل ﴿كَانَ عَلِيمًا﴾ بهم وبغيرهم ﴿قَدِيرًا﴾ عليهم وعلىٰ غيرهم.

ومع ذلك لا يعاجل بالعقوبة.

حقًّا، يعني ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ﴾ ويعاقبهم ﴿بِمَا كَسَبُوا۟﴾ من المعاصي والذنوب، لأهلكهم جميعًا و ﴿مَا تَرَكَ﴾ بذلك ﴿عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ أي: الأرض ﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ أي: أحدًا يدب عليها من إنسان أو حيوان.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ﴾ سبحانه، ويمهلهم؛ عسىٰ أن يتوبوا ﴿إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو يوم موتهم.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ﴾ وماتوا، جعل القبر روضة من رياض الجنة للمؤمن، وحفرة من حفر النار للكافر ثم بعثهم، ونعَّم الصالحين، وعذب الفاسدين، وليس ذلك علىٰ الله بعزيز!!

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا﴾ لا تخفىٰ عليه أحوالهم ولا أمورهم.

* * *

openkandl.com

obeikandl.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

سورة يسٓ

هذه السورة مكية، وتبدأ بقول الله تبارك وتعالىٰ:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥﴾

﴿يسٓ ۝ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ﴾ أي: المحكم، ذو الحكمة؛ لأنه من الله الحكيم سبحانه وتعالىٰ.

هذا قسم من الله عز وجل: يؤكد به للمكذبين رسالة محمد ﷺ.

وجوابه: ﴿إِنَّكَ﴾ يا محمد ﴿لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ من الله تعالىٰ، إلىٰ الدنيا كلها.

وأنت ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام، الذي هو المنهج القويم، والشرع المستقيم.

وهذا الصراط المستقيم الذي جئت به، والذي أنت عليه: ﴿تَنزِيلَ﴾ أي: منزل عليك من ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾ بعباده المؤمنين.

وقد نزَّل عليك:

﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ ۝٦﴾

أي: ﴿لِّتُنذِرَ﴾ به ﴿قَوْمًا﴾ أي: كل قوم، في كل عصر، وبالذات: العرب، الذين ﴿مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ من قبل، ولذلك: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾ عن آيات الله، بعيدون عن هديه.

ذات يوم حلف أبو جهل ليضربنَّ رأس محمد بالحجر ؛ فلما رآه، رفع يده بالحجر ليضربه، وهنا: غُلَّت يداه إلىٰ عنقه، والتصق الحجر بيده، ونزل قوله تعالىٰ:

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا فَهِىَ إِلَى ٱلْأَذْقَانِ فَهُم مُّقْمَحُونَ ﴿٨﴾ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَٰهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴿٩﴾ وَسَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾﴾

﴿لَقَدْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ أي: وجب عليهم، وهو:

﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

نعم، حَقَّ ﴿عَلَىٰٓ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث علم الله تعالىٰ أزلًا، أنهم يُصرون علىٰ الكفر حتىٰ مماتهم، ولذلك: وجب عليهم العذاب، ومن هذا يُفهم: أن المؤمنين، هم الأقلية، وأما هذه الأكثرية التي اختارت الكفر، ورضيته، وأصرَّت عليه: فيقول عنها رب العزة ﴿إِنَّا جَعَلْنَا فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ أَغْلَٰلًا﴾ رُبطت فيها أيديهم ﴿فَهِىَ﴾ أي: الأيدي ﴿إِلَى ٱلْأَذْقَانِ﴾ مرفوعة، مشلولة الحركة، وبذلك: ﴿فَهُم مُّقْمَحُونَ﴾ عاجزون عن أي: تصرُّف، هذا من جهة.

﴿وَ﴾ من جهة أخرىٰ: ﴿جَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ﴾ أي: أمامهم ﴿سَدًّا﴾ يمنعهم من الحق ﴿وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا﴾ وبذلك: ﴿فَأَغْشَيْنَٰهُمْ﴾ أعميناهم عن الحق ﴿فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾.

﴿وَ﴾ علىٰ هذا ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾: لا ينفعهم الإنذار، و﴿لَا يُؤْمِنُونَ﴾ حيث أضلهم الله عن الهدىٰ، وقيدهم، وأعماهم عنه.

ولكن هناك فريق آخر: ينفع الإنذار معه يقول عنه المولىٰ الكريم:

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلذِّكْرَ وَخَشِىَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ ۖ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ﴾ الإنذار النافع ﴿مَنِ﴾ اجتمع له أمران:

الأول: ﴿ٱتَّبَعَ ٱلذِّكۡرَ﴾ أي: القرآن، حيث خضع له، وعمل به.

الثاني: ﴿وَخَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِۖ﴾ أي: أطاع الله في جميع أموره، وخاف معصيته في خلوته.

من اجتمع له هذين الوصفين: ﴿فَبَشِّرۡهُ﴾ من ربه ﴿بِمَغۡفِرَةٖ﴾ لذنوبه ﴿وَأَجۡرٖ كَرِيمٍ﴾ لطاعاته.

ثم يذكر ربنا عز وجل: بعض ما يثير الخشية منه، ويبعث عليها، فيقول عز وجل:

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ وَنَكۡتُبُ مَا قَدَّمُواْ وَءَاثَٰرَهُمۡۚ وَكُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ ١٢﴾

يعني: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِ﴾ بقدرتنا ﴿ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ يوم القيامة ﴿وَنَكۡتُبُ﴾ وقد كتبنا ﴿مَا قَدَّمُواْ﴾ من أعمال حسنة، أو سيئة ﴿وَءَاثَٰرَهُمۡۚ﴾ كذلك التي تركوها من خلفهم سواء أكانت حسنة: مثل علم علَّموه، أو صدقة جارية، أو مسجد بنوه، أو عمل صالح أتقنوه، أو كانت سيئة: مثل فاحشة أشاعوها، أو بدعة نشروها، أو ظلم اقترفوه، ﴿وَ﴾ بصفة عامة: ﴿كُلَّ شَيۡءٍ أَحۡصَيۡنَٰهُ﴾ وجمعناه، وسجلناه ﴿فِيٓ إِمَامٖ مُّبِينٖ﴾ وهو اللوح المحفوظ، وبهذا: لا يغيب عنَّا ما عملوه، ولا يصعب عقابهم علينا.

ولأن الذين كتب الله عليهم أنهم لا يؤمنون: غير معروفين إلَّا لله سبحانه وتعالىٰ..!!

فإن الأمل في إيمان الباقين: باق لم يغلق بابه.

ولذلك: يقول ربنا لمحمد ﷺ:

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلًا أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ ١٣ إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱثۡنَيۡنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزۡنَا بِثَالِثٖ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ ١٤﴾

يعني: ﴿وَٱضۡرِبۡ﴾ يا محمد لقومك ﴿مَّثَلًا﴾ أي: قصة ﴿أَصۡحَٰبَ ٱلۡقَرۡيَةِ﴾، وذلك: ﴿إِذۡ جَآءَهَا ٱلۡمُرۡسَلُونَ﴾ لدعوة أهلها للإيمان.

واذكر لهم: ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمُ﴾ من أهل القرية،هؤلاء المرسلين ﴿ٱثۡنَيۡنِ﴾، فلم يُستجب لدعوتهما، ﴿فَعَزَّزۡنَا﴾ وقوَّينا هذين الإثنين ﴿بِثَالِثٖ﴾ أرسلناه معهما إلىٰ أهل هذه القرية.

﴿فَقَالُوٓاْ﴾ جميعًا، أي: الثلاثة لأهل القرية ﴿إِنَّآ إِلَيۡكُم مُّرۡسَلُونَ﴾ من ربكم الذي خلقكم: ندعوكم إلىٰ طاعته، والإيمان به.

ماذا فعل أهل هذه القرية، بعد زيادة هذا الثالث؟

﴿قَالُواْ مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ ١٥﴾

أي: ﴿قَالُواْ﴾ لهم:

أولًا: ﴿مَآ أَنتُمۡ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُنَا﴾ ولا ميزة لكم علينا، حتىٰ تكونوا رسلًا إلينا.

ثانيًا: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مِن شَيۡءٍ﴾ مما تقولونه، من توحيده، وطاعته، وعبادته.

ثالثًا: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَكۡذِبُونَ﴾ علينا.

وأجابتهم الرسل:

﴿قَالُواْ رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ ١٦ وَمَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ١٧﴾

يعني ﴿قَالُواْ﴾ لهم نعم: نحن بشر، و ﴿رَبُّنَا يَعۡلَمُ إِنَّآ إِلَيۡكُمۡ لَمُرۡسَلُونَ﴾ منه، وإنا لا نكذب عليكم.

﴿وَ﴾ لذلك ﴿مَا عَلَيۡنَآ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾ الواضح لهذه الدعوة ومبادئها، وعلىٰ الله الهداية.

وبهذا انتهت حجة المكذبين، وكان عليهم أن يسكتوا، بل أن يؤمنوا، ولكنهم: غرَّتهم قوتهم، وبهرهم سلطانهم، حيث:

﴿قَالُوٓاْ إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨﴾

أي: ﴿قَالُوٓاْ﴾ للمرسلين:

أولًا: ﴿إِنَّا تَطَيَّرۡنَا بِكُمۡۖ﴾ أي: تشاءمنا بكم، وبوجودكم بيننا، وبدعوتكم لنا، فاسكتوا، وابتعدوا عنا.

ثانيًا: ﴿لَئِن لَّمۡ تَنتَهُواْ﴾ عن دعوتكم إلينا ﴿لَنَرۡجُمَنَّكُمۡ﴾ بالحجارة حتىٰ الموت، كراهة لكم، ورفضًا لدعوتكم ﴿وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

ولم تخف الرسل من تهديدهم!! ولم يسكتوا عن دعوتهم!! حيث:

obeikandi.com

﴿قَالُوا طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿١٩﴾﴾

يعني ﴿قَالُوا﴾ لهم:

أولًا: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ﴾ أي: سبب شؤمكم معكم، وهو كفركم.

ثانيًا: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم﴾ بالهدىٰ، ودعيتم للإسلام تشائمتم؟

ثالثًا: لا تشاؤم منا، ولا قبول منكم للدعوة ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ في ضلالكم.

في هذه الأثناء، وخلال احتدام النقاش بين المكذبين والرسل: حدث أمر طيب عجيب يحكيه ربنا بقوله سبحانه:

﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٠﴾ ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٢١﴾﴾

يعني ﴿وَجَآءَ﴾ إليهم ﴿مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ يسير بجد وسرعة، ووصل إليهم، وعرف ما دار بينهم، وتوجه إلىٰ قومه ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ ٱتَّبِعُوا۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ الذين جاؤكم بالهدىٰ.

يا قوم ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَن لَّا يَسْـَٔلُكُمْ أَجْرًا﴾ علىٰ هذه الدعوة، وإبلاغ هذه الرسالة ﴿وَهُم﴾ في ذاتهم، وفي دعوتهم ﴿مُّهْتَدُونَ﴾ صالحون، صادقون، لا يكذبون.

وكأن أصحاب القرية استغربوا موقفه، واستنكروا كلامه، وسألوه: هل آمنتَ معهم؟

فقال: ﴿وَمَا لِىَ لَآ أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٢﴾﴾

أي: رد عليهم قائلًا لهم: ﴿وَمَا لِىَ لَآ﴾ أُومِن و ﴿أَعْبُدُ ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يعني خلقني..؟ ﴿وَ﴾ في الوقت ذاته: أنتم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ فيجازيكم علىٰ موقفكم هذا.

ولمَّا وجدوا اقتناعه بما جاء به المرسلون!! كأنهم حاولوا إعادته إلىٰ الكفر معهم، فقال لهم:

﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّىٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ فَٱسْمَعُونِ ﴿٢٥﴾﴾

يعني: ﴿أَ﴾ أعود إلىٰ الكفر بعد أن هداني ربي وآمنت، و ﴿أَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ﴾ أي: غير ربي ﴿ءَالِهَةً﴾ لا تملك شيئًا؟

بحيث: ﴿إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ﴾ أي: بمكروه؛ لأنه النافع الضار، ﴿لَّا تُغْنِ عَنِّى﴾ وتبعد ﴿شَفَٰعَتُهُمْ﴾ لي، لو كان من هذا الضر ﴿شَيْـًٔا﴾ ولو يسيرًا، كما أنهم ﴿وَلَا يُنقِذُونِ﴾ مما يحدث لي من مكروه.

﴿إِنِّىٓ﴾ لو فعلت ما تريدون ﴿إِذًا﴾ أكون مثلكم في ﴿ضَلَٰلٍ﴾ عن الهدىٰ ﴿مُّبِينٍ﴾ واضح.

وهنا: بدأ القوم يضربونه ضربًا يريدون به قتله، فما تخاذل، وما تراجع بل قالها مدِّوية في وجوههم، دامغة لظلمهم: ﴿إِنِّىٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ وربي، ولن يفتني عنه عذابكم ﴿فَٱسْمَعُونِ﴾ إن كنتم تعقلون، وآمِنوا بما آمنت به، وهو ما يدعوكم إليه المرسلون.

ثم قتلوه!! فكافأه الله عز وجل بالجنة!!

﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾﴾

فدخلها، فهو يرزق فيها، وأذهب الله عنه هموم الدنيا، وغمومها، وقلقها، وتعبها.

فلما رأىٰ هذا الثواب، ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾:

﴿بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ ﴿٢٧﴾﴾

وهذا هو حرص الدعاة علىٰ هداية الناس ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦]

يعلمون الحق، ويؤمنون به، حتىٰ يغفر الله لهم ذنوبهم، ويكرمهم برضوانه، ودخول جنته.

وهكذا، انتهت قصة أصحاب هذه القرية.

يقول تعالىٰ تعقيبًا علىٰ هذه القصة:

﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ ﴿٢٨﴾ إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ ﴿٢٩﴾ يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ ۚ مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يعني: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ المكذبين ﴿مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ أي: من بعد قتلهم له ﴿مِن جُندٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ لإهلاكهم ﴿وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ﴾ هؤلاء الجند.

فأمْر إهلاكهم كان أيسر من ذلك ﴿إِن كَانَتْ﴾ هلكتهم ﴿إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ من جبريل عليهم ﴿فَإِذَا هُمْ خَٰمِدُونَ﴾ ميتون جميعًا في لحظة واحدة، وهكذا: هلكوا!!

﴿يَٰحَسْرَةً عَلَى ٱلْعِبَادِ﴾ هؤلاء وأمثالهم الذين ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ يدعوهم إلىٰ الخير، ويدلهم عليه ﴿إِلَّا كَانُوا۟﴾ له يكذبون، و ﴿بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾.

وهذا التحسر: فيه تعريض بكفر المكذبين بمحمد ﷺ، وهم الذين ضُرب لهم مثل أصحاب القرية هؤلاء، ثم يعود الخطاب المباشر لهم في قوله تعالىٰ:

﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٣١﴾ وَإِن كُلٌّ لَّمَّا جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٣٢﴾﴾

أي: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟﴾ ويعلموا ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا﴾ كثيرًا ﴿قَبْلَهُم﴾ مِنْ أهل ﴿ٱلْقُرُونِ﴾ السابقة، ويتعظوا بهم، وبما حدث لهم!؟ خاصة: و ﴿أَنَّهُمْ إِلَيْهِمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾.

أيضًا: ﴿وَإِن كُلٌّ﴾ منهم ﴿لَّمَّا جَمِيعٌ﴾ لا استثناء لأحد ﴿لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ للحساب يوم القيامة، والجزاء علىٰ أعمالهم!!

نعم، نهلكهم بقدرتنا، ونبعثهم للحساب بقدرتنا، وهذا دليل لهم علىٰ ذلك:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٥﴾﴾

يعني ﴿وَءَايَةٌ﴾ ودليل ﴿لَّهُمُ﴾ علىٰ وحدانية الله، وقدرته، وإرساله الرسل إليهم وهي ﴿ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ﴾ اليابسة وذلك من عدة وجوه:

الأول: ﴿أَحْيَيْنَٰهَا﴾ من هذا الموت، بالماء ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

الثاني: ﴿وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا﴾ بعد نزول الماء عليها ﴿حَبًّا﴾ كالقمح وغيره ﴿فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ﴾ أي: ليتغذوا به ويعيشوا.

الثالث: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ﴾ بساتين ﴿مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾.

الرابع: ﴿وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ﴾ الماء، الذي يسقي الزرع ﴿لِيَأْكُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦ﴾، كل هذا من فضل الله، ﴿وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ﴾ ولا صنعته عقولهم، ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ فيؤمنون بالله، ويوحِّدونه، ويتِّبعون رسوله؟

سبحان الله !! نعم:

﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾

يعني ﴿سُبْحَٰنَ﴾ الله، وتنزَّه عما يقولون في حقه، ويشركون معه غيره؛ إذْ هو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ﴾ الأصناف ﴿كُلَّهَا﴾ سواء كانت ﴿مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾ من الزرع والثمار، أو ﴿مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي: الذكور والإناث أيضًا ﴿وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ مما لم يطلعهم الله عليها، ولم يتوصلوا إليها.

وهذا دليل آخر علىٰ: وحدانية الله، وإرساله الرسل، وقدرته علىٰ بعثهم للحساب:

﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾

﴿و﴾ هذه ﴿ءَايَةٌ﴾ لهم، كذلك!! وهي آية مكوَّنة من آيات على الوجه التالي:

أولًا: ﴿ٱلَّيۡلُ﴾ حيث ﴿نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ﴾ وننزعه عنه؛ فيذهب ضوؤه ﴿فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ أي: داخلون في الظلام.

ثانيًا: ﴿وَٱلشَّمۡسُ﴾ حيث ﴿تَجۡرِي﴾ بقدرة الله وإرادته ﴿لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ﴾ تستقر فيه عند انتهاء أمر الدنيا، ويلاحظ: أن ﴿ذَٰلِكَ﴾ الجري لها، هو ﴿تَقۡدِيرُ﴾ أمرٍ دقيق من ﴿ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾ لا من أحد سواه، ولا يدَّعي ذلك أحد سواه.

ثالثًا: ﴿ٱلۡقَمَرَ﴾ حيث ﴿قَدَّرۡنَٰهُ﴾ أي: قدَّرنا مسيره ﴿مَنَازِلَ﴾ يسير فيها ﴿حَتَّىٰ﴾ إذا كان آخرها ﴿عَادَ﴾ مظلمًا ﴿كَٱلۡعُرۡجُونِ﴾ وهو جريد النخل ﴿ٱلۡقَدِيمِ﴾ إذا قدم واصفر وتقوَّس.

رابعًا: وذا من بدائع قدرة الله وصنعه؛ حيث إنه ﴿لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ﴾ وهذا من تدبير الله ﴿وَكُلّٞ﴾ منهم يدور ﴿فِي فَلَكٖ﴾ خاص به، وكلهم في فلك السماء يدورون، و ﴿يَسۡبَحُونَ﴾ في هذا الفراغ الواسع الكبير، دون توقف، أو كلل، أو ملل.

أفلا يفهمون هذه الآيات فيؤمنون بالله، ويوحِّدونه، ويتَّبعون رسوله؟

وهذا دليل ثالث:

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ﴿٤١﴾ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ ﴿٤٢﴾ وَإِن نَّشَأۡ نُغۡرِقۡهُمۡ فَلَا صَرِيخَ لَهُمۡ وَلَا هُمۡ يُنقَذُونَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا رَحۡمَةٗ مِّنَّا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٖ ﴿٤٤﴾﴾

﴿وَءَايَةٞ لَّهُمۡ﴾ تدل على: وحدانية الله، وإرساله محمدًا ﷺ، وتدل على قدرته سبحانه، وهذه الآية مكوَّنة مما يلي:

أولًا: ﴿أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ﴾ أي: ذرية آدم ﴿فِي ٱلۡفُلۡكِ﴾ وهي: سفينة نوح عليه السلام ﴿ٱلۡمَشۡحُونِ﴾ المملوء.

ثانيًا: ﴿وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ أي: مثل الفلك ﴿مَا يَرۡكَبُونَ﴾ من السفن، والإبل، والدواب، وجميع وسائل المواصلات.

ثالثًا: ونجيناهم من الغرق، ﴿وَ﴾ لذلك ﴿إِنْ نَّشَأْ نُغْرِقْهُمْ﴾ في البحر ﴿فَلَا صَرِيخَ﴾ مغيث ﴿لَهُمْ﴾ ينتشلهم منه ﴿وَلَا هُمْ يُنقَذُونَ﴾ وينجون من هذا الغرق ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّنَّا﴾ لهم ﴿وَمَتَٰعًا﴾ بالحياة ﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى حين انقضاء آجالهم وموتهم.

وعلى الرغم من وضوح هذه الأدلة، فهم يعاندون!!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟ مَا بَيْنَ أَيْدِيكُمْ وَمَا خَلْفَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٥﴾﴾

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّقُوا۟﴾ غضب ربكم وعذابه في الدنيا والآخرة؛ ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ وتنجون من هذا العذاب: رفضوا، وعاندوا.

كذلك: ﴿وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٤٦﴾﴾

حتىٰ هذه الآيات الدالة علىٰ: وحدانية الله، وصدق الرسول، وقدرة المولىٰ، حينما تعرض عليهم: ﴿كَانُوا۟ عَنْهَا﴾ وعن الإفادة منها، والإيمان بسببها ﴿مُعْرِضِينَ﴾ رافضين، معاندين.

أيضًا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٤٧﴾﴾

يعني: إذا طُلِب منهم الإنفاق في وجوه الخير ﴿مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ﴾، قال هؤلاء ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ مستهزئين رافضين:

﴿أَنُطْعِمُ مَن﴾ أفقره الله، ﴿لَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ إطعامه ﴿أَطْعَمَهُۥٓ﴾ هو، دون حاجة إلينا، ثم يقولون: ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ بهذه الدعوة لنا للإنفاق ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤٨﴾﴾

يعني: يقولون: متىٰ هذا الوعد بالعذاب الذي تعدوننا به؟ فاتونا بهذا العذاب إن كنتم صادقين، أي: إن كان دينكم هذا صحيح!!

﴿مَا يَنظُرُونَ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴿٤٩﴾﴾

أي: ما ينتظرون إلَّا الصيحة الأولىٰ، أي: النفخة الأولىٰ، تأخذهم وبعضهم يخاصم بعضًا في معاملاتهم.

﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلَآ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ ﴿٥٠﴾﴾

يعني: لا يستطيعون أن يوصوا بشيء من أمورهم، ولا يقدرون علىٰ الرجوع إلىٰ منازلهم.

ويرىٰ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: أن هذه هي نفخة الفزع، ثم تكون نفخة الصعق، ثم تكون نفخة البعث، والأرجح: أنها نفخة الفزع، وهي النفخة الأولىٰ.

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾

ثم بيَّن سبحانه وتعالىٰ ما بعد النفخة الأولى: أي: نفخ فيه مرة أخرىٰ، وهي النفخة الثانية.

والأجداث: هي القبور.

ولكن كيف صارت النفختان مؤثرتين في أمرين متضادين، هما الإحياء والإماتة؟ نقول لا مؤثِّر غير الله، والنفخة مجرد علامة، ثم إن الصوت الهائل يزلزل الأجسام.

والنسلان: هو الشيء السريع.

﴿قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٥٢﴾﴾

قال الكفار لمَّا بُعِثوا، لأن قوله ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ [يسٓ: ٥١] يدل علىٰ أنهم بعثوا، والمرقد: هو المضجع.

قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: وهذا لا ينفي عذابهم في قبورهم.

فإذا قالوا: ﴿مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾؟ أجاب المسلمون قائلين: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ ٱلْمُرْسَلُونَ﴾.

﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾

نعم، ما هي إلَّا صيحة واحدة: فإذا الجميع بين أيدينا خاضع خاشعُ، أحضِر إجباريًّا، وصار واقفًا ينتظر الحساب.

ثم يكون في هذا اليوم ما يكون، مما تنخلع له القلوب، وتشيب منه الولدان، لكن علىٰ قاعدة واضحة، في هذا الحساب يسجِّلها العادل سبحانه في قوله:

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٤﴾﴾

لا ظلم في هذا اليوم، لا تهمة لبريء، ولا عقاب بغير ذنب، ولا تهاوُن مع مسيء، حيث يجازىٰ الكل بما عمل إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

نسأل الله السلامة والعافية.

ثم يخبر ربنا عن أهل الجنة، جعلنا الله وإياكم منها!! **فقال:**

﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمْ فِيهَا فَٰكِهَةٌ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴿٥٨﴾﴾

يخبر الكريم عن أهل الجنة، ونعيمهم في آيات يُتعبد بها، وتتلى إلىٰ يوم القيامة!!؟

إنه غاية التشويق، والتحبيب فيما يوصل إلىٰ ذلك، ألا وهو طاعة الله تعالىٰ!!

نعم، يكون أصحاب الجنة، وهم عباد الله المؤمنون الصالحون، يوم القيامة: في نعيم يشغلهم عن غيرهم؛ حيث يكونون هم وزوجاتهم الصالحات في ظلال أشجار الجنة، يسعدون بما يكون لهم فيها، فكل ما يشتهونه ينالونه، ويحصلون عليه دون مجهود أو معاناة، ثم يكون لهم أكمل الأشياء وأتمها وأعظمها: حيث يتجلَّىٰ لهم ربهم عز وجل، ويُنعِم عليهم بالسلام، الذي هو غاية المنىٰ.

يقال لهم: سلام من رب رحيم.

وأما الآخرون: أعاذنا الله منهم، ومن شرهم، وضررهم وصحبتهم!! وهم الكافرون فيقال لهم:

﴿وَٱمْتَٰزُوا۟ ٱلْيَوْمَ أَيُّهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٥٩﴾﴾

ابتعدوا أيها المجرمون عن المؤمنين، فلستم منهم، ولا هم منكم، ابتعدوا عنهم، فسنذيقكم اليوم العذاب الأليم، الذي كنتم به تكذبون.

ويمتثل الكافرون!! وينعزلون عن المؤمنين، وهم في حسرة وألم!!

فيقول لهم العزيز الحكيم:

﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا ۖ أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ ﴿٦٢﴾﴾

يقول لهم ربنا عز وجل تبكيتًا وتقريعًا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾ وآمركم وأنتم في الدنيا علىٰ ألسنة رسلي، وفي كتبي، بشيئين:

الأول: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ﴾ بطاعته فيما يوسوس لكم ويزينه من المعاصي، وقد حذرتكم منه وقلت لكم: ﴿إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾.

الثاني: ﴿وَأَنِ ٱعْبُدُونِى﴾ وحدي، وأطيعوني، واتبعوا رسلي، وقلت لكم موجِّهًا ومرغِّبًا في الطاعة: ﴿هَٰذَا صِرَٰطٌ﴾ طريق إلىٰ سعادتكم وفوزكم ونجاتكم في الدنيا والآخرة ﴿مُّسْتَقِيمٌ﴾ لا انحراف فيه ولا اعوجاج.

ومع هذا العهد، وهذا التبيين، وهذا الترغيب في الطاعة: ﴿أَضَلَّ﴾ الشيطان وأغوىٰ وأفسد ﴿مِنكُمْ جِبِلًّا﴾ خلقًا ﴿كَثِيرًا﴾ فعصَوْني، ﴿أَفَلَمْ تَكُونُوا۟ تَعْقِلُونَ﴾ فتميِّزون الصواب من الخطأ، والهدىٰ من الضلال؟

علىٰ أية حال:

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٦٣﴾ ٱصْلَوْهَا ٱلْيَوْمَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٦٤﴾﴾

نعم، يقال لهم: تحسيرًا، وتبكيتًا، ونكاية لهم!!

﴿هَٰذِهِ﴾ هي ﴿جَهَنَّمُ ٱلَّتِى﴾ حذَّرتكم منها الرسل، والتي ﴿كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ بها: بسبب معاصيكم وكفركم.

الآن ﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أي: ادخلوها، فهي ﴿ٱلْيَوْمَ﴾ سكنكم وإقامتكم، وذلك: جزاءً لكم ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ في الدنيا.

وهنا ينكرون ويقولون: ما كفرنا!! ويحلفون: ما كنا مشركين!!

فيقول رب العزة:

﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾

يعني في هذا الموقف ﴿نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ التي يجادلون بها، ونفضح أمرهم، ونكشف سترهم، ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ بدل ألسنتهم ﴿وَتَشْهَدُ﴾ عليهم ﴿أَرْجُلُهُم﴾ شهادة حق ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ من أعمال قبيحة.

فيقول ربنا عز وجل:

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَن نُّعَمِّرْهُ نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ ۖ أَفَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾﴾

يقول ربنا سبحانه وتعالىٰ: نحن قادرون علىٰ هؤلاء، وهم يعيشون علىٰ إنعامنا عليهم، وإحساننا إليهم، ومع ذلك: يكفرون!!

﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَطَمَسْنَا﴾ بقدرتنا ﴿عَلَىٰٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ فأعميناهم، وسلبنا منهم نعمة البصر، فإذا أرادوا السير كعادتهم ﴿فَٱسْتَبَقُوا۟ ٱلصِّرَٰطَ﴾ منعهم هذا العمىٰ، ﴿فَأَنَّىٰ يُبْصِرُونَ﴾ حينئذ؟ طبعًا لا يستطيعون!!

﴿وَ﴾ كذلك ﴿لَوْ نَشَآءُ لَمَسَخْنَٰهُمْ﴾ بقدرتنا ﴿عَلَىٰ مَكَانَتِهِمْ﴾ أي: وهم في أماكنهم، وجعلناهم قردة وخنازير، وسلبنا منهم نعمة الخلق الحسن، فإذا أرادوا الذهاب والمجيء ﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مُضِيًّا وَلَا يَرْجِعُونَ﴾ أي: إذا مسخوا في مكانهم لم يقدروا أن يذهبوا، ولا أن يرجعوا.

﴿وَ﴾ علىٰ كلٍّ ﴿مَن نُّعَمِّرْهُ﴾ ونجعله يعيش زمناً طويلًا ﴿نُنَكِّسْهُ فِى ٱلْخَلْقِ﴾ أي: نجعله بعد القوة ضعيفًا، وبعد الشباب هرمًا.

﴿أَفَلَا يَعْقِلُونَ﴾ كل هذا، ويتدبرون فيه؛ فيعرفون قدرة الله، فيؤمنون ولا يكفرون؟

لقد بلَّغهم محمد ﷺ كل هذا، ودعاهم إلىٰ الإيمان، وتلى عليهم القرآن، الذي هو من عندنا، والذي ليس بشعر كما يردِّدُون.

﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾

نعم، القرآن كلام الله تعالىٰ، وهو الحق، وليس بالشعر، ومحمد بلَّغه، وهو ليس بشاعر ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ أصلًا لتتهموه بذلك ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لَهُۥٓ ۚ﴾ أن يكون شاعرًا، وكذلك: ما يصح أن يكون القرآن شعرًا!!

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ﴾ من الله ﴿وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ﴾ يتلىٰ ويُتعبَّد بتلاوته، ويبيِّن المنهج السوي والطريق المستقيم، لمن أراد طاعة الله، ونوال رضاه.

وكذلك ﴿لِّيُنذِرَ﴾ النبي ﷺ بهذا القرآن، ويخوِّف ﴿مَن كَانَ﴾ قلبه ﴿حَيًّا﴾ يعقل؛ فيستفيد الهداية والفلاح، ﴿و﴾ أيضًا ﴿يَحِقَّ ٱلْقَوْلُ﴾ وتلزم الحجة، ويجب العذاب ﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ المعاندين.

ثم تعود آيات السورة الكريمة للتأكيد والتدليل علىٰ وحدانية الله تعالىٰ ووجوب عبادته فتقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ أَنْعَٰمًا فَهُمْ لَهَا مَٰلِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَٰهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَٰفِعُ وَمَشَارِبُ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾﴾

يعني ﴿أَ﴾ عمي هؤلاء ﴿وَلَمْ يَرَوْا۟﴾ بعيونهم، ويعلموا بعقولهم ﴿أَنَّا خَلَقْنَا﴾ وحدنا ﴿لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَآ﴾ دون شريك أو مساعد ﴿أَنْعَٰمًا﴾ هي الإبل والبقر والغنم!؟

ويدخل في ذلك: كل ما أنعم الله به علىٰ الإنسان إلىٰ يوم القيامة، وقد بيَّن الله سبحانه وجوه الإنعام في هذه الأنعام، فقال:

أولًا: ﴿فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ حيث إنه لو خلقها سبحانه ولم يملكها الإنسان: ما كان ينتفع بها أحد!!

ثانيًا: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾ أي: سخَّرناها وطوَّعناها لهم، حيث إنها لو كانت أبيَّة عصية: ما كان ينتفع بها أحد!! ولذلك يقول عز وجل ﴿فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾.

ثالثًا: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ﴾ غير ما ذكر ﴿وَمَشَارِبُ﴾، ثم يقول ربنا تبارك وتعالىٰ: ﴿أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ صاحب هذه النعم، بالإيمان بوحدانيته، وقدرته، ويتَّبعون رسله..؟ يا سبحان الله!! إنهم بدل أن يؤمنوا كفروا.

﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَّعَلَّهُمْ يُنصَرُونَ ﴿٧٤﴾ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

إنهم اتخذوا آلهة من دون الله؛ أملًا في نصرها لهم، ومساعدتها إياهم، إذا نزل بهم ضر، أو حدث لهم مكروه، أبدًا: هذا لا يكون، ولن يكون، إذ أنّ هذه الآلهة:

لا تستطيع، ولا تنفع، ولا تضر.

والعجيب !! أن هؤلاء الكفار: يعطون الولاء الكامل، والجندية الحقة لهذه الآلهة العاجزة التي صنعوها لأنفسهم ﴿وَهُمْ لَهُمْ جُندٌ مُّحْضَرُونَ﴾ علىٰ أتم استعداد لخدمتها.

مع أن الواجب عليهم: أن يُعطوا هذا الولاء، وهذه الجندية الكاملة، والطاعة التامة لله رب العالمين، وألَّا يقولوا علىٰ الله: إلَّا الحق، وألَّا يقولوا علىٰ النبي ﷺ: إلَّا أنه نبي.

﴿فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٦﴾﴾

فلا يسوءك ويحزنك يا محمد كفرهم بالله، وتكذيبهم لك، وعنادهم معك؛ حيث ﴿إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ وسنجازيهم بما يستحقون.

ولمَّا كان الدليل السابق علىٰ وحدانية الله.. من دلائل الآفاق!! ذكر بعده من دلائل الأنفس ما تقدمه هذه الآيات:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ ۖ قَالَ مَن يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾﴾

يعني ﴿أَ﴾ جهل ﴿وَلَمْ يَرَ﴾ ولم يعلم ﴿ٱلْإِنسَٰنُ﴾ الذي ينكر وحدانية الله، وينكر البعث ﴿أَنَّا خَلَقْنَٰهُ﴾ وحدنا بقدرتنا ﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ ضعيفة مهينة ﴿فَإِذَا هُوَ﴾ بعد هذا الخلق، وهذه الرعاية، وهذا الإنعام ﴿خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾ في عداوته لربه، بإنكاره وحدانيته، وعدم اتباعه لرسله، وانقياده لشرعه؟.

﴿و﴾ من خصومته، أنه ﴿ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ﴾ حيث أتى أحدهم بعظم بالٍ للنبي ﷺ ، وفتّه بيده، و ﴿قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ﴾ هذه ﴿وَهِىَ رَمِيمٌ﴾ بالية؟

أَتراهُ الله يا محمد؟ ونزلت هذه الآيات، وهي باقية إلىٰ يوم القيامة حجة علىٰ كل من يكفر بالله تعالىٰ، وينكر البعث.

ولذلك يقول ربنا للنبي ﷺ ، وكل حامل لرايته، ومبلِّغ لدعوته:

﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾

أي:﴿قُلْ﴾ لهؤلاء المنكرين ﴿يُحْيِيهَا﴾ الله سبحانه وتعالىٰ، ويبعثها يوم القيامة، فهو سبحانه الذي ﴿أَنشَأَهَآ﴾ من العدم ﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، ومن قدر علىٰ البدء: قدر علىٰ الإعادة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ﴾ خلقه وأنشأه ﴿عَلِيمٌ﴾ به، وقادر علىٰ إعادته.

وهذه دلالة علىٰ قدرته سبحانه:

أولًا: هو ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم﴾ بقدرته ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾ أي: تقدحون النار من هذا الشجر الأخضر.

ثانيًا: هو الذي خلق السموات والأرض باعترافكم ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

هـــذا.. ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ

﴿مِثْلَهُمْ﴾ أي: يعيدهم كما بدأهم..؟ ﴿بَلَىٰ﴾ إنه قادر ﴿وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ سبحانه وتعالىٰ.

ثالثًا: هو الذي يقول للشيء كن فيكون فورًا ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ﴾ فقط ﴿كُن فَيَكُونُ﴾ لأن أمره بين الكاف والنون.

رابعًا: هو الذي بيده ملكوت كل شيء، ولا ملك لغيره ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ فهو صاحب الأمر والنهي، والحول والطول، ﴿وَإِلَيْهِ﴾ سوف ﴿تُرْجَعُونَ﴾ أيها المعاندون، مع جميع الخلائق يوم البعث، وتجازون علىٰ أعمالكم وعنادكم وكفركم.

فآمنوا إن كنتم تعقلون!!.

* * *

obeikandl.com